أبو فراس

الشاعر الأسير

د. محمد رجب البيومي

الدار المصرية اللبنانية 

مشاهير الشعراء العرب للشباب والناشئين

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - ص .ب 2022 برقيا دار شادور - القاهرة - ت : 3923525 - 3936743 - فاكس : 3909618

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
تليفون : 3256098 - 3251043

رقم الإيداع : 7710 / 2001
الترقيم الدولي : 3 - 656 - 270 - 977
الطبعة الأولى : صفر 1422 هـ - ابريل 2001 م

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

أبو فراس الحمدانى

أبو فراس الحمدانى

الشاعر الأسير

تأليف : د. محمد رجب البيومى

الناشر
الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

***

هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .

والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ،واجتمع النساء يلعبن المزاهر ـ كما يصنعون فى الأفراح ـ لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثِرهم . . والمُمجِّدُ لذكرهم .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . . !

وقد أجمع دارَسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

ـ فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

ـ ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

ـ ويبدأ العصر الأُموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

ـ أما العصر العباسى الأول فيبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

ـ ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

ـ ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة ـ كما تتغير الظروف السياسية ـ وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثَمَّ تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم ، فتجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجِزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسدل الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، وطواهم فى جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا فى التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارىء المعاصر ـ فى زحام الحياة الضاغطة المهمومة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هى جزء من عظمة التاريخ العربى والحضارة العربية . . وهى أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ،فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا فى باب كل عصر نطرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئين . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المناهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنص الشعرى . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء وشعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين ، باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاصَ والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلاَّق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

يقدم هذا الكتاب مثلاً حيًّا للشباب المتوثّب ، فأبو فراس مضربُ المَثَل فى أكثر من اتجاه ، فهو بطل باسل يغشى الحروب ، ويقتحم الأهوال ، ويرجع من أكثر مواقعه مكلَّلاً بالنّصر .

وهو شاعر مُلْهَم يعبّر عن مشاعر خُلقية رائعة ، ويهدف إلى مُثُل كريمة فى شعره ، وله ديباجة رائعة تجذب القارىء إليه فى شوق واهتمام .

وهو ذو مبادىء إنسانية تعتزُّ بالوفاء والصدق ، والشَّمم ، وحماية الضعيف ، وغَوْث المستجير ، مع ترفُّع عن الدنايا ، وبُعد عن الشبهات .

ثم هو الأسير الذى وقع فى محنة يتعرض لها الأبطال ، حيث يثقون بشجاعتهم ، فتأتى العواقب بغير ما يريدون . وقد عبر عن معاناته الأليمة فى الأَسْر بما ينبىء عن شمم مترفع ، ونفس وَثَّابة تنشد الخلاص .

لذلك كانت حياته سجلاً رائعًا للبطولة ، وكان شعره إلهامًا حيًّا يرسم أَسْمَى النزعات ، وأصدق الخوالج .

وقد رأيتُ أن أعرض ذلك من خلال ما عُرف من حياة الشاعر الأمير ومن ثنايا ما قال من الشعر الرائع فى صفحات محدودة تلتزم بها هذه السلسلة

الممتازة ، وإيجازها الملتزم يغنى عن كثير ، ولعله يدفع القارىء إلى مطالعة الديوان ، فيلمَّ بكل ما قال ، إذَا لم يكتف بما اخترته من شعره البليغ .

د . محمد رجب البيومى

حياة وثّابَة

جَلَسَتْ والدة أبى فراس الروميّة الحسناء تُفكر فى أمرها ، وما أَمْرُها إلاَّ ولدها الفارسُ النجيب الحارث أبو فراس ، فقد عاشتْ من أجله ، تَرعى شئونه ، وتهمُّ أن تردّه إلى أحشائها ضَنًّا على الدّنيا بمآثره ، وإنها لترنو بالذكريات إلى الماضى البعيد قبلَ أربعة وعشرين عامًا ، حين كانتْ مع الفرسان فى إحْدى معارك الروم ، وأبو العلاء سعيد بن حمدان يقودُ المعركة فى بسالة ضدَّ ذَويها من الفرسان ، ولهُ وَثَباتٌ خارقة جعلَتْه الظافِرَ المنصور ، وقد رآها بين القوْمِ رائعةً ، باهِرة الجمال ، مُورِقة الشباب ، فصمم أن تكونَ أَميرةَ بيته ، وسَيِّدَة قلبه ، وما انتهت المعركةُ حتى حَمَلَها معه أسيرةً ، وقَدْ فَزِعَتْ لهول ما نَزَل بها ، وظنتْ أنها بعدَ العزِّ الممنَّع فى دَارها ، والحظوةِ المشتهاة فى أهلها ستُصبح أَمَةً تُباع فى الأسواق ، ولكنّ سعيدًا البطل لَمح ما يدُورُ فى نفسها من الأشجان ، فلم يَلْبَثْ أن أَعْلَنَ لها أنّها ستكون سيّدةَ العَصر إذا رَضِيتْ به زوجًا ، وَكانَ صادقًا فيما قال . فما تَركَ المعركةَ إلى الموْصل مقرّ حُكمه ، ومجالُ سلطانه ، حتى تَقَدَّمَ بها إلى أحسنِ مكانٍ فى قُصُورِهِ ، وأعتَقها بمشْهدٍ من الناس ، وعَقد عليها فى احتفالٍ باهر.

وقد رأتْ من شمائله الكريمة ما حببه إلى نفسها ، وزادتْ سعادتها حين مَنّ الله عليها بأبى فراس . وقد سماه والدهُ الحارث ، وأبو فراس كُنيةُ الأَسَد ، والحارثُ من أسمائه . وكانتْ طلعة الوليد زاهرةً ساطعة ، فقد حَمل

من أُمِّه وأبيه معًا سماتٍ رائعةً ، جعلتْ بشَاشَتَه تأسرُ النفوس حين تقع عليه ، ورأتِ الأُمُّ أن طفلَها هو مصدرُ أملها فى الحياة . فلو تَغير كل إنسان كما يتغير البحرُ من صفاء إلى كدر ، فلنْ يتغير عليها فلْذةُ كبدها . ومَعْقِدُ رجائها ، وكانتْ تحسّ قلقًا دَاخليًّا ينتابها ، لأنها غريبة فى مُجتمع عربى ، وتحتاجُ إلى ظهِير تأْوى إليه إذا هَبَّت الرياح بما لا تشتهى السُّفن . فلما هَلَّ أبو فراس بطلعته الزاهرة كانَ هو الظهير المُرتجى ، والأمل المنشود .

نشأَ الطفل سعيدًا بأبيه وأمّه ، وقد امتدّت آمالُ والدته فتصورتْه رجلاً يملك الأمر بعد أبيه ويصبح أمل الدولة ومعقدَ الرجاء ، فغمرتْها فرحة أخذتْ تشيع فى نفسها ، وكأنها تتعجلُ الأيام أن يأْتِيَ هذا الوقت الّذى ترى فيه وَلَدَها شَابًّا يُسْند بقوته كهولةَ أبيه ، ويكونُ مستشاره الأَوْفَى ، ولن تكون غريبةً بعيدة . . والزوج أملُ اليوم ، والابْنُ رجاءُ الغد !

وبعد ثلاث سنوات من مولد أبى فراس (إذْ رأى نور الحياة فى يوم من أيام سنة ٣٢٠ الهجرية) فُوجئت الأم على غير انتظار بزلزالٍ مُروِّع هدمَ سعادتها هَدْمًا ، إذْ دُبِّرت مؤامرةٌ سياسية لاغتيال سعيد بن حمدان ، فجاءهَا النبأُ الصاعق على حين غفلةٍ من امتداد الآمال ، وازدِهار الأحلام ، جاءَها النبأُ الصاعق فزلزلَ بناءها النفسى ، وحطَّم كيانها المادىّ . . فارتمتْ صارخة معولة ، تدور بعينيها فتجد كل شيء من حولها قد تحطَّم ، إلاّ طفلاً صغيرًا لم يَتَخَطَّ الثالثة من عمره ! فانطلقتْ إليه تُقبّلُه باكية صارخة ، والطفلُ لايدرى أىّ هول نَزَلَ به وبها ، ولكنه يرى مشهد أمِّهِ فيفْزعُ بإحساسهِ ، وينخرطُ فى البكاء كما تبكى ؛ إذ شاهد ما أفزعَه وراعه .

وخَفّتِ الأم تكفكف دموعه وتضمه إلى صدرها فى حنان ، والوصيفاتُ من حولها يحاولْن تسليتها بدُون جَدْوَى ، فَالخَطْبُ أَشَدُّ من أن يُحتمل ، ولكنْ لابد أن تمضى الأيام فى سنتها المعهودة غير عابئة بِحُزن الحزين وسُرور

المبتهج ، وكأنّها رأتْ أنّ الموصل لم تعد دار بقاءٍ لها بعد أن اغْتصبَ الأمرَ ناصرُ الدّولة مُدبرًا اغتيال حبيبها .

وكان سيفُ الدولة فى حَلَب يعلَمُ من حقيقة الزّوجة الشابة وولدها الصغير ما أهَمَّ نفسَه ، فَبعَث إليها لتأْوى إلى موطنه بعيدةً عن مسْرح الأحزان ، وسرعان ما لبت الأيم الثاكل دعوة المنقذ الأبِىّ ، فرحلت إلى ديار الشام ، واختار لها السّيد الماجد مَوطِنًا بمنبج إحدى المُدن العامرة فى سلطانه، فمنحها القصر والخدم ، واستأنَفَتْ حياةً أخرى فى الموطن الجديد .

لم يغب عن الأم لحظة واحدة أنْ تُفكر فى مستقبل الطّفل الناهض ، وإنها لَترى فى سماته الساطعة شمائل الإمارة ، وملامح العظمة ، فهو جديرٌ أن يُعيد مجد أبيه إذا تقدمت به الأيام ، وكَيْفَ ولم يَعُدْ له ظهيرٌ يسنده ، فعمُّه « على » سيفَ الدولة صاحب حلب يمهّد الأمر لأبنائه ، ومُغتصب ملك أبيه ناصر الدولة فى الموصل حريص على أن يمحو اسم سعيد بن حمدان كَيْلا يتذكر الناس غدره الشنيع ! . . فكَّرتِ الأم فى ذلك فأطالت التفكير ، وكانت حازمةً ذات إرادة وعمل ، فقالتْ : إذا لم يَبلغ أبو فراس المكان الأول فى قومه ، فلن يعدم مكانًا مُقَاربًا يرتفعُ به ذكره ، وَيرنُّ صداه فى دولة سيف الدولة . وقد بدأَ برعايته ، وحرص على أن يحيا حياة الأمراء فى قصرٍ عامر ، وعيْشٍ مُرَفّهٍ منعّم ، وكيف يبلغُ أبو فراس ما تأمله من النفوذ والمكانة؟ ليس طريقُ المجد سهلاً يُفْرشُ بالورود والريحان لمن يرومه ، ولكنه طريق حافل بالصعاب ، ملىء بالأشواك والصخور ، ولابد من كدح متواصل وعَملٍ دائب كى يسير فيه الناهض المتطلّع على بصيرة وثقةٍ حتى يبلغ مرتجاه ! هذا ما عرفتْه الأم الحصيفة المفكّرة ، فحاولتْ جهدها أن تمهد له السبيل .

لقد رأتْ أنّ البطولة تعتمد على الفروسية ، وعلى البيان . . فعليها من الآن أن تَأخذَ الناشىء بما يمهّد له أسباب هذه البطولةِ ، فهو فى حاجة إلى دُرْبة عملية فى ميدان الصّيال ، وإلى غذاءٍ عقلى يمدّه بالمنطق الصائب والقول البليغ ، وأولاد الأمراء منْ أسرته يُنَشَّئُون هذه النشأة ، فهم يتعلّمون أُصُولَ الشجاعة ووسائلَ الصّيال ، كما يتعلّمون علوم العربية القريبة التناول ، وأولها الشعر والنثر . . فَلا عَجبَ إذا فكّرت فيمن يقُوم بتنشئة الطفل الصغير على أحسن ما تُحبّ ، بطولةً وأدبًا ! والمجتمعُ يزخر حولها بذوى المعرفة من رجال الأدب والشعر، وذوى الدربة من أبطال المعارك وصناديد الوقائع ! فالأمر سهل ميسور ، وما عليها إلاّ أن تبدأ .

أخذَ أبو فراس فى نُمُوِّهِ المزدهر ، وأخذت الأم تحكى له من قصص البطولة عربيةً ورومية ما جعله يحنّ إلى حديثها ، فهى كما تُغذيه بالطعام والشَّرَاب ، تُغذيه بأنْباء الشجاعة ومواقف الاستبسال ، وطبيعى أن يسأل الطفل عن أبيه وعن عمه وعَنْ مكان أسرته فى الشام والموصل ، وأن تأتيه الإجابة بما يرتفع بنفسه سموًّا ومجادة ! ثم إنه يحمل فى تكوينه موهبة الشاعر وحماسةَ البطل ، يحملُ هاتين عن فطرة موروثة ، ودَم يتنقل بين العروق هاتفًا بالمجد والعلاء . . فصادفَ ذلك منه أرضًا خصبة ، ما جادَها المطر حتى آذنت بالنماء !

أخذَ رِجال اللغْة والأدب يتناوبون الحضور إلى قصْر الأمير ، ولِكلّ مادته التى يتدرج فى تعليمها ، وكانَ فى أبى فراس تطلّع واشتياق إلى ما يسمع ، وقد كانَ درسُ التاريخ الإسلامى أحبَّ الدروس إليه ، حيْث ملأه بعزةٍ نفسيّة جعلتْ أعمالَ عُمر ، وعلىّ ، وسعْد ، وخالد ، وأبى عبيدة تتمكّن

من نفسه . وقد حدَّثَ أُستاذَه ابنَ خالويه فيما بعدُ أنه حين قرأ تَاريخ الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ؛ تمنّى أن يكون قد نشأ فى عهدِ النبوة ليكونَ بطلاً من أبطال المسلمين !

أمَّا شغفُه بالمعارك فى صغره ، فقد دعَاهُ إلى أن يُؤَلّف من زملائه الصغار جماعتين متقاتلتين ، ولكل جماعةٍ أسلحتها وأهدافها . وتدور الحرب فى ساحة قَصْره ، لأنّ ساكنى منبج قد أزعجوا بما يأتى أبو فراس من أعمال متتابعة تُعَطّل الطّرق ، وتستدعى النقد ، وتَشَكّى لأمه غضبة هؤلاء من هذا التّمرين الحربى الضرورى ، فأشارتْ عليه أن يكونَ الفناءُ الواسع فى القصْرِ مسرحًا لما يُريد من تمثيل أدوار البطولات ، هذَا إلى أن الجو الحربى فى حَلب ، وغاراتِ الروم المتتابعة على ديار الشام ، وأحاديثَ عمّه سيف الدولة وما يقومُ به من بطولات حربيّة ، كلّ ذلك كان له رَنِينُه المتواصل فى نفسِ الناشىء الشجاع . وحينَ انتصر سيف الدولة فى بعضِ غزواته وأَسَر كبار القادة من الروم ، وجاءت الأنباءُ إلى البطل الصغير . . صَمَّمَ على أن يكونَ الفريقان المتقاتِلان فى ساحة قصره ، يمثّلون جَبهة القتال الواقعية بيْن رُوم وعرب ، وقد حملَ على الروم فى عنف ، ووقَع قائدهم أسيرًا فى يده ، فعَدَّ ذلك فألاً سعيدًا ينم عمّا سيقوم به فى مُسْتقبله حين يصحبُ عَمَّه فى غزوات الروم ، والأيام لا تنى عن السير ، وكلّ طفلٍ بالغٍ منتهى أمده إذا قدر له أن يعيش .

وهكذا انتقل أبو فراس إلى دَوْر اليفاعة أديبًا شاعرًا وبطلاً محاربًا ، ولم يُطق المقام بمنبج ، فتقدم إلى ابن عمه فى حَلَب مادحًا بقصيدة من شعره الأول ، ضَمَّنَها إحساسه الخاصّ بفضله ورعايته ، ومُشيدًا ببطولته ، وعارضًا نفسه أن يكون بيْن أبطال المعركة تحتَ راية سيف الدولة . وقد فُوجىء سيف الدولة بما سَمع من شعرٍ لم يكن يتوقعه من صَبِىّ مبتدىء ،

وهو فى أطواءِ نفسه يحبّ الشعراء ويجمعهم حوله ، ويجلسُ حَكَمًا بينهم فى بعض ما يتناولُون من المعانى . . فلما قرأَ ما كَتب أبو فراس عَرف أن هِلاَله سيصير بدرًا عن قريب ، ورأَى من نخوته ما جعله يتقدَّم به إلى الصفوف الغَازية بطلاً محاربًا . وهكذا تم لأبى فراس ـ وهْو لم يعْدُ التاسعةَ عشرةَ من عمره ـ أن يكونَ شاعرًا يتناقل الناس قصائده ، وأن يكون بطلاً يتصدر الكتائب ، ويفى بحق البطولة فى الفوز والانتصار .

ولم تكُنْ معاركُ أبى فراس جانبيةً بين شراذم متواضعة ، ولكنّها كانت معاركَ حامية تشبه معارك ابن عمّه سيف الدولة ، وأبرزُ هذه المعارك معركة « دلوك » حينَ نفَرَ سيف الدولة إلى بعض الثغور واستخلف أبا فراس على حلَب ، وعلم نقفورُ ملك الروم أن عاصمةَ الحمدانيين قد خلَتْ من أسيرها ، وأن اقتحامها ممكن فى غيبته ، فجمع الجموع الكثيفة ، وَخَفَّ إليها واثقًا من النصر ولكن أبا فراسٍ اسْتنْفَرَ العربَ لساعته وأعدَّ ألْفًا مِن كُماتهم ، وخرج لمنازلة الجيش الزاحف . ودارتْ معاركُ حامية تتصل وتنقطع دُون مُهَادَنَة ، وقد ذكر المؤرخون سِتًّا منها . ثُمّ تَمَّ النصر لأبى فراس ، وبلغَ النبأ سيف الدولة فى مغتربه ، فكَرَّ راجعًا ليجد آثار المعركة بعد أن فرّ نقفور منكسرًا ، فأثنى على ابن أخيه وعَانَقَه . ومما يتعلق بهذه المعركة فيما بعد ، أن أبا فراس حين وقع أسيرًا فى يد نقفور ، بدا له أن يتجاهله وأن يتساءل مَن هو ؟ كأنه لا يعرفه ، فحزَّ ذلك فى نفس أبى فراس ، وأسرع يردّ عليه مُذكّرًا إياه بهزيمته فى « دلوك » على يده . وكان مما قال بهذا الصدد مخاطبًا صاحب الروم[1] :

---

(١) الديوان : ص ٢٧٥ .

أتُنكرنى كأنَّكَ لَسْتَ تدرِى ... بأنـى ذلكَ البطلُ المحـامِى
وأنـى إذْ نزلـتُ عـلى دَلـوكٍ ... تركتُكَ غيرَ متسـع النظـام
ولمـا أنْ عقـدتَ صلـيبَ رأيٍ ... تحـلّل عقـدُ رأيكَ فى المقـامِ

ولم تَنتهِ المعركة ، فقد آثر سيف الدولة أن يتبع نقفور بعد انسحابه، ليَقْتَصَّ منه حين جرؤ على الهجوم فى غيبته ، فصحبه أبو فراس ، وكانَ الدمستق قد أمعَن مُرتحلاً ، فلم يُدركاه ، وقد حدثَ أن نشزت بنُو كلاب وأظهرتْ عصيانها لسيف الدولة ، وتبعهم جمعٌ من الأعراب ، فشاءَ سيف الدولة أن يُبادرهم بالعقاب كيْلا يستثيروا القبائل العربية التى أخذت تُعاهدهم من قبل ، ونشبت حرب تشتّتَ بها جمع الكلابيين، وسُلبت أموالهم ، وأُسرت نساؤهم ، ولكن أبا فراس لم يرْضَ أن تُساق النّساء سبايا على حالةٍ من الحزن والانكسار ، وهُنَّ عربيّات . . فأخَذَ جمعًا منهن وَاسْتَسْمَح سيف الدولة أن يُطلق سراحهن ، وجعلَ يحدثه عن مروءة العفو، وفى سيف الدولة سماحةٌ وأريحية ، فقدّر مشاعر ابن أخيه ، ومَنَّ على السبايا بالعفو ، فعُدْنَ إلى ديارهن مكرمات ! وفى ذلك يقول أبو فراس من قصيدة[1]:

ورحـتُ أجرُّ رمحى عـن مقامٍ ... تحـدَّثُ عنه ربـاتُ الحِجَـالِ
فقائلـةٌ تقـولُ أبـا فـراس ... لقـد حامَيْتَ عن حرمِ المعالـى
وقائلـة تقـولُ جُزِيـتَ خـيرًا ... أُعيـذَ عُـلاكَ مـن عينِ الكمالِ

وتكررت مواقفه مع النساء فى غزواته ، فقد أطلق «النزاريات» فى حرب بنى نزار ، ولم يدعهنّ فى الأَسْرِ قبل الصلح ، بل جعل رجوعهن إلى ديارهن

(١) الديوان : ص ٢١٠ .

فرضًا محتومًا عليه، وتلك رجولة باسلة لا يتذوق طعمها غير الأُباة من كرام الرجال، وهو فى أسره بديار الروم، ومعاناته شدائد الحرمان، مادّية ومعنوية، لم ينس مواقفه الباسلة من هؤلاء الأميرات المحزونات ، إذ كانت هذه المواقف مادة فخر نفسى له ، وكان فى إحجامه عن ربات البراقع والخمر ما زاده اعتزازًا بنفسه، وافتخارًا بمروءته ، وقد تجلى ذلك فى قوله (١):

وحيٍّ رَددتُ الخيلَ حتى ملكتُه هـزيمًا وردَّتْنـى البراقـعُ والخُمُرُ
وساحبـةِ الأذيـالِ نحوى لقيتُها فلم يلْقَها جافى اللِّقاءِ ولا وَعْـرُ
وهبتُ لها ما حـازَهُ الجيشُ كُلـه ورُحْتُ ولم يكشفْ لأبياتها ستْرُ

وقولُه «وهبت لها ما حَازه الجيشُ كُلّه » يدلّ على أنه تنازلَ عن الغنائم والأسلاب إرضاء لمشاعر إنسانيّة ، واحتسابًا لمواقف نفر أضناهم البلاء ، وهى شمائلُ عربية عُرفت فى الأدب الجاهلى ، وزكاها الإسلام بما سَنَّهُ من مبادىء العفو والإعفاء . فإذا قلنا إن أبا فراسٍ مُتَّبعٌ فى ذلك سننًا عربيةً ، ونهجًا إسلاميًّا ؛ فإننا لم نَبعد عن الحق فيما نقول .

ووقائع بنى كلاب قد تعددت ، إذْ كانوا عربًا أُولى حميّة ، وكانت الهزائم تدفعهم إلى معاودة القتال طلبًا للثأر ، والمتنبى يقول فى هؤلاء (٢):

ولـو غيـر الأميـر غـزا كـلابًا ثنـاهُ عـن شموسِهـمُ ضبـابُ

اعترافًا بما لهم من بأس صارم . وقد كانَ أبو فراس رفيق ابن عمه فى أكثر غزواته لهم ، وَلاَقى فى حروبهم من ضُروب العناء ما جَعله يستشعر بَرْدَ الراحة حينَ يسجّل مواقفه بين الرمح والسيف . ومن بين قصائده الرنانة فى هذا المجال قصيدةٌ ذاتُ نَفَسٍ طويل ، وليسَ الأمرُ أَمْرَ طولها المتدفق

(١) الديوان : ص ١٦٠ .

(٢) ديوان المتنبى : جـ (١) ص ٢١٢ .

المنسال، ولكنه أمر حرارتها المتوهّجة، ونبضها العالى المتدفق ، إذْ أخَذ يُعدّد وقائعه فى بنى كلاب ومن تَجَمَّعَ حولهم من بنى قشير ، وبنى عقيل ، وبنى قريع ، وبنى المهنّا ، وكلّهم أصحابُ حقود شاغرة ، وثارات قديمة ، دارت الدائرة عليهم بعد كفاح مرير ، كانت خاتمته واضحة فى قول أبى فراس[1]:

فـما كانـوا لنَا إلاَّ أُسـارَى ... ومـا كانـوا لنـا إلاَّ نهابَـا

فَسُقْنَاهُـم إلى الحيـران سَوْقًا ... كما نستـاقُ آبـالاً صِعـابَـا

ولمـا اشتدّتِ الهيجـاءُ كُنَّا ... أشــدَّ مخالبًا وأحـدَّ نابَـا

وأمنـعَ جانبـًا وأعزَّ جـارًا ... وَأَوْفَى ذمـةً وأقـلَّ عابَــا

فلـما أيقنُـوا أَلاَّ غيـاثٌ ... دَعَـوْهُ للمغوثـةِ فاستجابَا

أنَا ابنُ الضاربينَ الهامَ قِدْمًا ... إذا كـرِهَ المحامُـون الضِّرابَـا

وكان لفروسية أبى فراس وبلائه فى الخطوب الأَثَرُ الطيب فى نفسِ سيف الدولة ، فجعله واليًا على «منبج» ، وصار صاحب الشأن فى أُمورها ، فجعلها كعبة للأدب والعلم ، وزارها الكثيرون من رُوَّاد «حَلَب» ، شعراءَ وكتابًا ورواة ، وحاول أن ينقل إلى «منبج» إخوته من أبيه ، حيث آثروا البقاء هناك ، وهى رغبة كريمة لم يُتح لها أن تتحقق ، لأن هؤلاء الإخوة وجدوا من الاستقرار العائلى ما حَبَّبَ إليهم عدم النزوح . ومُؤَرِّخُو الشاعر لم يذكروا شيئًا عن زوجته وأولاده إلاّ ما ورد من شعر أبى فراس فى خطاب ابنته وهو فى النزع الأخير ، وإلا أبياتًا مِيمِيَّة ، تدل على أن المراد بها زوجته ، وفيها يقول :

محجـوبةٌ لم تُبْتَـذَلْ ، أمّـارةٌ ... لم تَأْتَمِرْ ، مَخْدُومَـةٌ لم تخدمِ[2]

(١) الديوان : ص ١٦ .

(٢) الديوان : ص ٢٧٧ .

وسكوتُ الشاعر عن الحديث عن الزوجة أمرٌ متعارف فى الأَسَرِ العربية العريقة ، إذْ عندهم أنها حَرَمٌ مصون لا تناله العيون والألسنة ، أمَّا الأم فإن اجتيازها دور الشباب إلى الكهولة يجعل الحديث عنها طبيعيًّا لا شُبْهَةَ فيه ، ومِن هنا كان أبو فراس شديد الاهتمام بتصوير مشاعِرِه نحو والدته ، كما سأشير إلى ذلك عند الحديث عن أَسْرِه ! هذَا إلى أنّ أم الشاعر لم تكن أُمًّا كسائر الأمهات ، بل كانت بالنسبة له أُمًّا ووالدًا فى وقت واحد ، فهى التى رَعَتْه رعايةً دقيقةً أَهَّلَتْه إلى أنْ يتبوأ مكانه السياسى والأدبى فى الدولة ، ولم يكنْ ليأنس لسواها حين يفيض بنجواه الدفينة ، إذْ هِىَ مُستودعٌ لكل سرٍّ ثمين ، وإخالُها باعِثَةَ الأمل فى نفسه فى شَتَّى مناحى الحياة ، لذلك أَكْثَرَ من الحديث عنها شوقًا وإعجابًا وتقديرًا ، وسألمّ بنهايتها المؤسفة فيما يلى هذه الفصول .

على أنّ الكتب التى تناولت فى القديم حديث أبى فراس قد اهتمتْ بأدبه دون حياته ، وكان على « أبى منصور الثعالبى » وأضرابه مِمّن أفاضوا فى ذكر أشعاره أن يلموا بمواقفه التَّاريخية لتكون إطارًا حصينًا لما قالَه من الشعر، وأنا أعجب لـ « ابن خالويه » وقد استأمنه الشاعر على نشْر ديوانه ، وقدمه له ، كيف لم يُفِضْ فى تاريخ تلميذه إفاضةً شافية ، وهو يعرف عنه ما جَلَّ وكَبُر ؟ وكان فى قيامه بذلك ما يمهد الحدثَ المستطاب لهذا التاريخ الحافل، ويظهرُ أن الرجل كان عالمًا راوية أكثر منه مؤرخًا ، فلم يُفض كثيرًا بما يكشف عن قصائده التى يعرف مناسباتها ، ويلم بأسرار دفينة عنها قد لا تتيسر لسواه .

على أن الديوان قد ذَاعَ وخُلِّد ، وهو العزاء عن كل تقصير لحق بتاريخ الشاعر الكبير .

احتاج أبو فراس إلى أن يقرأ بعض قصائد الشعر الجاهلى على أُستاذه ابن خالويه ، وكان أحبَّ هذه القصائد إليه قصيدةُ « عمرو بن كلثوم » فى الإشادة بقومه بنى تغلب ، لأنّ أبا فراس تغلبى تَحَدَّرَ من هذه القبيلة ، وقد أَشْبَعَ عمرو بن كلثوم عاطفته حين وصف بنى تغلب فقال :

وقد علم القبائلُ من مَعَدٍّ إذا قُبَبٌ بأبطُحِها بُنينا
بأنّا العاصمون إذا أُطِعْنا وأنّا العازمون إذا عُصينا
وأنّــا المُنـعمـُون إذا قــدرنا وأنّا المُهلكونَ إذا ابتُلينا
ملأنا البَرَّ حتى ضاقَ عنا ونحن البحرُ نملؤه سَفينا
إذا بلغَ الرضيعُ لنـا فِطامـًا تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا
وأنّا نُورِدُ الراياتِ بيضًا ونُصدرهنّ حمرًا قد رُوينا
وأيــامٌ لــنا غِــرٌّ طــوالٌ عَصِينا الملكَ فيها أن نُدينا

فكانَ أبو فراس كثير الترداد لها . وقد جامَلَه ابن خالويه فأَخَذ يُثنى على عمرو بن كلثوم ، ويعدُّه صاحب المعلقة الحماسية الكبرى فى الشعر العربى . ولم تَمض لحظات حتى تَغَيَّرَ وجه أبى فراس ، وتطلّع إلى أستاذه كمن يُضمر سؤالاً يهم بترداده ، ولكنه يتمنَّع ، وعرفَ أستاذه منه ذلك ، فسأله : ماذا يجول بخاطرك أيها الأمير ؟

فقال أبو فراس : أريدُ أن أُفشى لك سؤالاً يتردد فى صدرى بين الحين والحين حين أفكّر فى قومى منذ الجاهلية إلى الآن ، وهو : إذا كانت «تغلب»

أَعَزَّ قبائل العرب ، وقد كانتِ القبائل من « مَعَدٍّ » تَدين لها وتعرف مكانها ، وكان البر يمتلىء بجنودها ، والبحرُ يعم بسفنها ، وكان رضيعها مهيبًا تخرّ له الجبابرة ساجدين ، وكانتْ حروبها مظفرة منذُ عهد « كليب بن وائل » ومن سبقه ومن تلاه ؛ فكيف لم يحوزوا مجدَ الأمة العربية على نحوٍ متّسع غير الذى رَوَاه التاريخ ؟ آباؤهم هم الآباء ، وأبناؤهم هم الأبناء ، شجاعةً وحماسة وفتوة وفروسية ! كيف لم يكونوا فى الصف الأول مع خلفاء بنى أمية وبنى العباس ؟ وكيف خذلهم الخلفاء وهم الجنود الباسلون ؟

رأى ابن خالويه أن أبا فراس جعل كَلام عمرو بن كلثوم حَقًّا واقعًا لا مبالغة فيه ، ولم يُردْ أن يقول له إن الشاعر بالَغَ وأفرطَ ؛ فيهزّ من نفسه مكانةً يعتقد أنها صادقة لا شبهة فيها . . فابتسمَ فى مودّة وقال له : أتأذنُ يا أميرى أن أُصَارِحَكَ بما أراه ؟

فقال أبو فراس : وهذا ما أبتغيه وأسعى إليه .

فاعتدل ابن خالويه ، وأظهر الاهتمام الجادّ كأنه مُقبل على تقرير حقائق غائبة يريد جلاءها فى سطوعٍ ، وقال فى حسْم صريح :

إن « تَغْلِبَ » وأبناءها وأحفادها آسادٌ تحاربتْ وتخاصمت ، فأكل بعضُها بعضًا . كان الأمير منهم يعادى الأمير ويقفُ له بالمرصاد مُحاذرًا أن يسبقه فى مكرمة ، أو يتبوَّأ مكانًا لم ينلْه ، فكثرت بينهم الحروب ، سافرة حينًا ، ومستترة فى الدسائس حينًا آخر . . ولو كانَ الأمر على عكس ما قررت ، لَاجْتَمَعَتِ الأسرة على قلبِ رجل واحد ، فبلغت ما كنتَ تريد . إن تفصيل ذلك منذُ عهد الجاهلية مما يطول ، ولكنى سأشير إلى مواقف من الماضى القريب .

فتأوّه أبو فراس تأوّهَ من وَضَعَ يده على جُرح غائر ، وقال لأستاذه : إن

صفحة المنازعات الضارية تبعث شجونى ، ولستُ فى حاجة إلى ترديدها . . ولكنّى أريد أن أعرف تيارَ الأحداث فى هذه الأسرة منذ بزغَ أميرها حمدان الذى إليه ننتسبُ ، وبه نعتز . . وليسَ مثلك يا أستاذى من يُحسن رصد هذه الأحداث ، وقد عاش فى بلاط الأمير ، وقرأ المأثور من تاريخ آبائه وأجداده ، وهأنذا مُصغٍ إلى ما تقول .

فابتسم ابن خالويه وقال : أَرَحْتنى أيها الأمير حين طويت عهود الجاهلية والإسلام ثم الأمويّة وشطرًا كبيرًا من العباسية إلى عصر حمدان . . كان جدكَ حمدان التغلبى شجاعًا باسلاً ذا طموح ، وقد عزّ عليه أن تنهار مكانة الدولة العباسية وأن تتقطّع أجزاءً يستولى على خيراتها نازحٌ يعْتز بسلطانه وجيشه ، وأكثر هؤلاء عجم غير عرب ، ففكّر فى أن يقتطع جزءًا يختص به ، فأعلن فى سَنةٍ إحدى وثمانين ومائتيْن من الهجرة استقلاله بقلعة مَاردين وما حولها من الربوع ، وحارب جيوش الخليفة المعتضد حين زحفت إليه ، وشاهد أميرُ المؤمنين من بلاء خصمه وقوة شكيمته ما جَعله يفكّر فى استرضائه وضمّه إلى صفه ، فأحضرهُ مُعَزَّزًا إلى مجلسه ، وأفهمه أنّه عربى مثله ، وأنّه سيكونُ أحد أبطاله فى مُواجهة المارقين ، ولم يجِدْ حمدان فى نفسه غير القبول ، فعَاهد الخليفة على النصر ، وقدمَ ابنه الحسين بن حمدان ليكون قائدًا على جيشٍ وجّهه الخليفة لمحاربة القرامطة . وقد أبلى الحسين بلاءً حسنًا ، ورجع ظافرًا منتصرًا ، فحاز رضا المعتمد . . وحين تولى الحُكم من بعده المكتفى بالله ، جَدّد ثقتَه فى آل حمدان ، فولى الحسين بن حمدان قيادةَ الجيش ، وَوَلَّى أخاه أبا الهيجاء الموصل وأعمالها ، ونَدَبه لإخماد ثورة نشبت فى جهات متفرقة قريبًا من الموصل ، فنجح فى إخمادها !

ثم سكتَ ابن خالويه فجأةً ، فسأله أبو فراس أن يخوض فيه ، فقال فى تؤدة :

ـ أستاذى : التاريخ هو التاريخ ، فَقُلْ ما ترى أنه الواقع الصريح !

فقال ابن خالويه : كان رِضا الخليفتين المعتمد والمكتفى فرصةً ذهبية ينتهزها بنو حمدان ، فيقفونَ على قلب رجل واحد ، ليسهموا فى بناء مجد ينتظره العرب على أيديهم فخورين . ولكنْ ما كاد الخليفة يظهر العطف على أبى الهيجاء بعدَ انتصاره على الثُّوار فى ضواحى الموصل ، حتى شعر الحسين بأن أخاه قد ملك من الحظوة فى دار الخلافة أكثر مما يملك ، فنابذه العداء ، ووقَع الشقاق بين الأخوين ، وهو ما كان يريده خليفة بغداد ، لأنّه يحذر أن يَلْتَئم شَمْلُ الأسرة الحمدانية على مذهب واحد ، فيكونوا قُوَّةً مرهوبة يُحسب حسابها . . لذلك شجّع هذا الغضب الثائر فى نَفْسِ الحسين ، وسعَتْ عقاربُ الشَّرِّ بالدسائس ، حتى أصبح كلا الرجلين لا يطيق صاحبه .

قال أبو فراس : وماذا جَدّ فى هذه الداهية الدهياء ؟

فقال ابن خالويه : لقد حَصلَ ما زادَ النّارَ التهابًا ! لقد ذهب المكتفى ـ كما ذهب المعتمد ـ وجاء المقتدر ، ودُبّرت مؤامرةٌ لخلعه اشترك فيها الحسين ابن حمدان ، وحين انكشفَ أَمْرُه وفسدت المؤامرة فَرَّ الحسين هاربًا ، وشاء القائمون على أمر المقتدر أن يُوقعوا بين الأخوين على نحو سافر ، فأصدروا الأمر لأبى الهيجاء بأن يتعقب أخاه . وفعلاً قامت الحرب بَيْنَ الأخوين ، وانتَهى الأمر بموافقة الخليفة على الصّلح مع الحمدانيين ، وأن يتولّى الحسين ديار ربيعة ، وأبُو الهيجاء الموصل . . والعداءُ متمكن ، والتحرش بين الأخويْن دائم لا ينقطع .

قال أبو فراس : وأيْنَ الأمراء الآخرون من بنى حمدان ؟ لماذا لَم ينهضْ ذوو العقل منهم إلى جمع الشمل بين الأميرين المتخاصمين ؟ لماذا لم يَخطبْ خطيبهم فى مجتمع حمدانى ليعلن أن الأسرة تنهار بهذا الشقاق ، وأن التآزر يعصمها من الانهيار ؟

فسكت ابن خالويه ولم يُجب . فصاح به أبو فراس : قُلْ يا أستاذى ، وهَاتِ ما لديك ، ولا تعتقدْ أننى سأغضبُ حين تَنَالَ قومى بالنقد ، فالتاريخ لا يرحم !

فردّ ابن خالويه يقول : عَمَّن نَتحدث من أُمراء آل حمدان ؟ إنهم انقسموا إلى معسكرين ، فريقٌ مع أبى الهيجاء يأتمر بما يقول ، وفريقٌ مع الحسين يطيعه فى كل اتجاه . . لقد نَظَر كلُّ أمير لنفسه وَحْدَه ، فاختار الجانب الذى يَصعد به إلى آماله ، ولم يفكر فى الأسرة باعتِبارِها وَحْدَها ذاتَ الشأن الأول ، ولم يرعَ مجد الآباء والأجداد . لقد وَقفتْ « تغلبُ » على بكرة أبيها مع المهلهل انتقامًا لكليب فى حرب البَسُوس ، ولم يشذّ منها تغلبىٌّ واحد ، حتى ولد كُليب الذى تَربّى فى حِجْر جَسَّاس ، قاتِلِ أبيه، ولم يكن يعلم المأساة على حقيقتها لأنّ أُمَّه جليلة ـ شقيقة كليب ـ قد أَخْفَتْ عنه ما كان! هذا الصبىُّ التَّغْلِبى الناشىء حين علم أن عمّه التغلبى يقاتل خَالَه طلبًا لثأر أبيه ؛ غَلاَ الدم فى عروقه وتركَ أُمّه مع أَخيها ، وصَمّم على أن يَغْتال من تَربَّى فى كنفه ، لأنّه قاتلُ أبيه ! هذا هُوَ الدم التغلبىُّ الحارُّ جَرى فى عروق الصبى الناشىء فَدفعه إلى الانتقام ، ولكن الأمراء قد انقسموا فريقين ، كل فريق يفكر فى شأن مَنْ يلوذُ به ، آمِلاً أن يهلك خصيمه وهو عمّه أو ابن عمّه ! أهذا منطق معقول ؟

قال أبو فراس : هذا حَقٌّ صريح ، وتلك وقفات أليمة سَجَّلها التاريخ .

فارتد ابن خالويه يقول : ليس كل ما كتبه التاريخ أليمًا فى سجلِّ بنى حمدان ، ففى هذا السجل صفحات مشرقة تستدعى الالتفات ، وسأذكرُ منها بعضَ ما يحضرنى كيلا أكون ككاتب السيئات يكتب كُلَّ سيئة ويترك لغيره أن يسجّل الحسنات .

فابتسم أبو فراس وقال : هيّا ، فكلّى مسامع .

قال ابن خالويه : سأبدأ بمآثر والدك الكريم الأمير أبى العلاء سعيد بن حمدان ، إذْ كانَ ملازمًا حضرةَ أمير المؤمنين المهتدى باللّه ، حَظِيًّا عنده ، فكانَتْ أكثر مواقعه أمام بابه ، وبين يديه ، فلما اشتد أمرُ الرَّجَّالة ـ وهم فرقةٌ من العسكر طَرَدَهم المقتدر ونزعَ من أيديهم ما يملكون ـ وتجمعوا حزبًا واحدًا ، وسَعَوْا إلى دار الخليفة مُهَدِّدين متوعدين ، لاقَاهم جنودُ الأتراك فلم يفعلوا شيْئًا ، وانهزموا أمامهم مُدبرين، وكاد القصر يُقْتحم وتسقُطُ حُرمته، ولكنَّ أبا العلاء سعيد بن حمدان كانَ من شهودِ هذه الأزمة الحالكة، فَعَزَّ عليه أن يُقتحم حِمَى المهتدى بالله دُون مُدافع، فَخرجَ مع جماعة من الحراس ، وقد لَبس لأمَـتَه ، وحَمل سيفه ، ووراءه الكثير من غلمانه وجنوده، فأعمَل فيهم السيف ، وقد أحاطوا به من كل جانب ، وأعملُوا فيه السّهام والنشاب حتى أثخنوه بالجراح، ولكنه ثبت ثبات الأُسْد، ولم يهتم بما غُرِسَ فى جسمه من النّصال ، وبالدماء التى أخذت تسيل من كل مكان ، حتى تم النصر على يده . ثم دارتْ وقعة أخرى فى دار الوزير ابن مقلة استنجد فيها بأبى العلاء ، فقامَ مقامًا لا يقومُه سواه، وحفظ له الخليفة ذلك !

أَمَّا غزواته فى بلاد الروم فكانَتْ أكثر من أن تُحْصَى ، وأهمُّها ما كان فى سَنة تسعة عشر وثلاثمائة ، حيث أوغلَ فى بلاد القَرْم ، وقتَلَ وسبَى وغَنِمَ، وكان على رأس خمسمائة فارس من العرب . . ولو وجَدَ سيدى أبو العلاء من الشعراء ما وَجد سيدى سيف الدولة الحمدانى لَسُجِّلَتْ وقائعه فى الروم، وشاعَ ذكرها فى الناس كما شاعت وقائع سيف الدولة على ألسنة المتنبى والناشىء والخالديين ، وأعظمهم جميعًا سيدى أبى فراس !

قال أبو فراس : يعلم الله أنى هممتُ أن أسجل هذه الوقائع الماضية ، ولكنى رأيتُ عمى سيف الدولة يمثل هذا الدور بعينه ، فلم أشأْ أن أزْحم معه غيره ، ولعل الأيام تسمح لى بأن أسجل أمجاد بنى حمدان جميعًا فى مُعَلَّقَةٍ تُنْسِى الناسَ معَلَّقة عَمرو بن كلثوم ، وهذا ما أراه فرضًا علىَّ ، وسأقوم به عن قريب إنْ شاء الله .

قال ابن خالويه : نرجعُ إلى مَجد بنى حمدان ، فنذكر أَنّ البريديّين حين هدّدوا أمير المؤمنين وحاصروا قصره ، استجارَ بسيدى سيف الدولة وسيدى ناصر الدولة الحمدانييْن ، فوصلت جيوشهما بعد أن اقتحم القوْمُ دار الخلافة وحملوا ما بها من الذخائر والأعلاق ، ونَهبوا ما استطاعوا أن ينهبوه من قصور بغداد ، وعَظم الخَطْب بعد أنْ فَرَّ أمير المؤمنين ووزيره وقائد جنده هارِبَيْن ، ولكن البطليْن الحمدانِيَّيْن تعقبا البريديّين، وأوقعا بهم ، فانكفأ شرهم ، وبحث آل حمدان عن الهاربين من سادة القصر فأكرموا مثواهم ، وردُّوا عليهم سكينتهم ، وكانَ سيدى أبو العلاء سعيد بن حمدان والدك يرقب الموقف ، فلم يشأْ أن يخذل البريديين بعد أن هُزمت جموعهم ، وأصبحوا يلتمسون الغفران ، فَسَعَى بينهم وبين السلطان بالصلح ، فَعَفَا عنهم ، وأقَرّهم على ما كانوا يملكون ، ودخلوا مدينة السلام شاكرين ، وكانُوا قد جمعوا أَلْفَ ألف درهم جعلوها هدية لسيدى أبى العلاء جزاءً وفاقًا لما بذَلَ فى إنقاذهم ، ولكنّه رَدَّهَا عليهم ، ولم يقبلْ منها إلاَّ هدية رمزية هى عمامة خَزّ.

قال أبو فراس: أعلمُ هذه الواقعة عن أبى ، وأعرف أن رُوحه العربية أبت أن ينحدر بالبريديّين إلى مهاوى الفاقة ، فعمل على إسعادهم ، وتبرع لهم بالمال بعد أن رَدَّ عليهم هديتهم ، وكفاهم ما نالهم من انكسارا

قال ابن خالويه : فرق كبير يا أبا فراس بيْن نفسيّة سيف الدولة وناصر الدولة ؛ فالأول أصيلٌ ، جرتْ أصالتِه فى عروقه فلم يتخلّف عن مطالبها العالية فى يومٍ ، والثانى أصيلٌ جرى فى بعض مواقفه على سُنن آبائه ، وفى بعْضها الآخر على شىءٍ من الوصولية البغيضة ، والإجمالُ يغنى عن التفصيل!

فزفَر أبو فراس زفرة حارّة ، وقال : ولِمَ الإجمال والأمر واضح ، فَمَا يومُ حليمة بِسِرٍّ . لقد اشترك ناصر الدولة فى قتْلِ أبى بمؤامرة دنيئة ، ولَوْ لاَقَاهُ وجهًا لوجه لما سَلِمَ من بأسه ، فالناسُ يعرفون شجاعة أبى العلاء سعيد بن حمْدان ، ويعلمُون أنه لا يحيك الدسائس بالليل ، بل يقدمُ على عَدُوِّهِ فى وضح النهار . أمَّا ناصِرُ الدولة فقد أظهرَ الاحتفاء بأبى ، وقَدِمَ لاستقباله مرحبًا معتزًّا ، ووالدى صريح لا يضمر الشَّـرَّ ، لا سيما لمن تَجرى فى عروقه دماء حمْدان ، فنزع سلاحه ومضَى فى لباس المنزل إلى مبيته، ففاجأه الغادرون بالسلاح، وطار النبأ إلى كل مكانٍ ، فاهتزت الأرض لمصرع بطلٍ قُتل فى غبش الظلام ، وفرَّ قاتله فرارَ النذل الجبان !

قال ابن خالويه : لقد أثرتُ شجونك أيها الأمير ، وأنا أعلم أن عواطفك الغالية أثمن من أن تُثار فى مجلسٍ أدبيٍّ أَنْتَ مصباحُه وسراجه، فلننتقلْ إلى أمرٍ آخر.

فنظر أبو فراس إلى أُستاذه نظرةً حادَّة تدلّ على مخالفة وجهة نظره، وتُعلن إصراره على أن يفصح فى هذا الموقف بما لا يدع لأحدٍ أن يشكّ فى تعليل مأساةٍ راح ضحيتها والده الحبيب، فقال فى قوة حازمة، مخاطبًا جليسه الصديق :

ـ اعلمْ يا سيدى أنه لا أَوْلَى منكَ، ولا أجدر بتسجيل الأحداث السياسية كما وقعتْ بدون زَيْف أو محاباة، وقد خاض الناسُ فى هذه المأساة خوضَ من يرهب ناصر الدولة لأنه أميرٌ مقتدر يملك الثواب والعقاب. أمَّا أبو العلاء سعيد بن حمدان فقد ذَهَبَ إلى ربه، ولم يبق له من مجده ما يهابه الهائبون، فَلَوَّنُوا الأحداث بما يرضى ناصرَ الدولة لا بما ينطق به الواقع الأليم!

لقد قال القومُ إن ناصر الدولة لم يشتركْ بسيفه فى مصرع والدى، وأنا أعرف ذلك. . ولكنْ ما الفرق بين أن يُدبّر مؤامرةً تنتهى باغتياله عن عَمْدٍ وخديعة، وبيْن أن يهجم بسيفه فيغتال من دَبَّر المكيدة لاستئصاله ؟ . . أليست النتيجة واحدة ؟!

لقد عقد الخليفة لأبى على الموصل، ولناصر الدولة على ديار ربيعة . . ولكنَّ ناصر الدولة طمع فى الموصل، وعلم الخليفة بذلك، فتخوّف من ناصر الدولة حين يجمعُ ديار ربيعة والموصل تحت يده، ولم يَرَ بُدًّا من أن يتصل بأبى ليجنِّده من شرٍّ يوشك أن يلحق به من ناصر الدولة. وأحسَّ ناصر الدولة أنّ والدى على حذر منه؛ مع أنّ والدى لم يقدم على شىءٍ عمليٍّ يؤذيه، فدبَّر المكيدة لاغتياله، وإذا قيل شَىءٌ غير ذلك فهو نفاقٌ يُساق من أجل ناصر الدولة، بل هو ترديدٌ لما حاكه ناصر الدولة ليشيع بين الناس؛ فيعذروه على غدره الشنيع.

قال ابن خالويه : أَرَى أن الأمير قد شُفِى وكَفَى، وأنّ أُستاذه قد أفَادَ من بصره بالحقائق ما لم يفده من أُناس تحدثوا بغير ما كان، والأمل فى الأمير كبير إذْ يُعيد مجد أبيه، ويرفع راية بنى حمدان متآخيًا مع عَمِّه الأمير العظيم.

قال أبو فراس : هذا ما أرجوه، وآمُل أن أستطيع.

أى عصـر؟

كان أبو فراس يجلسُ مع أُستاذه ابن خالويه، وفى وجهه دلائل التفكير المُتَشَعِّب، وكأنه يُعانى من الخواطر الأليمة مَا لا قِبَلَ له به، ولمْ يَفُتْ ذلك أستاذه، وكان له مُحبًّا، وعليه عَطُوفًا، يعرف مقامه فى الدولة، ومستقبله المنتظر فى حماية ابْن عمّه سيف الدولة، فراعَه أن يجده فى هذا الهمّ من التفكير، فابتسم ابتسام المُلاطف، وسأله فى رفق :

ـ أيها الأمير الشاعر الفارس، ماذا يَشْغَلُك اليوم ؟

فقال أبو فراس : اليومَ فقط ؟ هو شُغْل كل يوم، ولكنى أدارى وأتغافل، واليومَ قد فاضَ بى الإناء .

فقال ابن خالويه : ومَاذا جَدَّ اليوم حتى يفيض الإناء ؟

قال أبو فراس : جاءَتِ الأنباء من بغداد أنّ الأمراء التُّرْك قد عَاثُوا فسَادًا، وخلعوا الخليفة، وسَمَلُوا عينه !

فابتسم ابن خالويه فى ألم، وقالَ : كَأَنَّكَ تَرى هذا حَدَثًا جديدًا يا أبا فراس.. هذا شأنُهم الدائم.. يتلاعبون بالخلفاء، ويقتلون القُوَّادَ والأعيان، ويُهاجم بعضُهم بعضًا، فبَأْسُهم شديد فيما بينهم، لا على الأعداء فقط !

فزفر أبو فراس زفرةً حارة، ثم اتجه إلى أُستاذه فى جدّ، وقَالَ : لنترك اليومَ شئُون اللغة والأدب والنحو، ولنتحدثْ فى شئُون السياسة، فأَعْلَمُ منك كيف استحكم شَرُّ هؤلاء، فأذلوا الرقاب، ودان لهم الخلفاء ، وأصبحوا يولّون ويعزلون، بل يسملون ويقتلون !

فاعتدلَ ابن خالويه فى مجلسِه، ثم قال : هذا حديثٌ يطول، وما أظنُّك ترضَى بِالْخَوْضِ فى مآسٍ تَشيبُ مِن هَوْلها الرءوس !

فنظر أبو فراس نظرة الجادّ المتطلع إلى معرفة ما يخفى من الأشياء، وقالَ : أعلمُ يا أستاذى مُجْمَلَ ما يفعل هؤلاء الأوغاد ، ولكنّى أريد بعض التفصيل، ولنْ أَمَلَّ الحديث مهما طال .

فأظهرَ ابن خالويه اهتمامه بقول تلميذه، وقالَ فى رفق : أمَّا إذا طَلَبْتَ ذلك إذَنْ فاسمع . .

وتلفّت ذات الشمال وذات اليمين كأنه يحرص على ألا يوجد أحدٌ فى المجلس سواهما فينتقل الحديث على غير وجهه، ويُذاع عن إبن خالويه أنه يتحدث فى شئون السياسة مع أبى فراس . . ثم جَمَع عزمه وقال :

ـ اعلم أيها الأمير أنّ الفوضَى عَمَّتْ فى بغداد منذُ قُتِلَ المتوكل على الله، والأمراءُ الأتراكُ هُم الّذين قتلوه ، وجَعلوا ابنه المنتصر خليفة من بعده، فملكوا زمام الأمر ، إذْ أصبحوا هم الذين يقتلون ويولون وفق أهوائهم المغرضة.

قال أبو فراس : وكيف جَرُؤَ هؤلاء على قتل الخليفة دُون أن يعبئُوا بالرأى العام، وفى الدولة أُمراء ، وقوّاد ، وقضاة ، وفقهاء ، ووزراء ؟

فتأوه ابن خالويه تأوُّهًا أليمًا ، ونظر إلى أبى فراس نظرةً تدلُّ على ألَمَ

دفين، وقالَ فى حسرة : لَستُ مؤرخًا أيّها الأمير ، ولكننى أعرفُ ما يعرفه قارئُ التاريخ . لَقد مَكّنَ المتوكّل على الله من نفسه حين فَقَدَ حُبَّ الرعيّة ، وكانَ عليه أن يَسْتغل مشاعر الناس نحوه يوم تولَّى الخلافة ، لأنّه أَرْضَى أهل السنة ، ورَفَعَ مِحْنة خَلْق القرآن ، ورَعَى مكانة الإمام أحمد بن حنبل ، فأحبَّه الناس، والتفوا حوله ، وبدلَ أن يستثمر هذا الحبّ ؛ انْصَرفَ إلى أهوائه الخاصّة ، وجَعَل يبْنى القصور الفخمة ، مثل قَصْر العَروس وقصر المُختار، وقصر المتوكلية ، كما أنشأ حدائق اللهو ، وحظائر الحيوانات على نَحو لم يُسمع به من قبل . وتوسَّع فى إنشاء الميادين بسَامرّاء وحَفْر القنوات لتأتى بالمياه لهذه القصور ، وسخّر آلافَ العمال فى هذه الأبنية دُون أن يأخُذوا مكافأةَ العمل، لأن القائمين عليه جعلُوا همَّهم الكسب الشخصى لأنفسهم مما يَسرقون ويختلسون . . فضج الناس بالشكوى ، وبخاصةٍ حين جَمع الضرائب لينشىء ما سمَّاه بالنهر الجعفرىّ ، وقد امتدَّ خَمْسًا وستين كيلو مترًا ، فأنفقَ على إعداده مالاً يسعهُ الخيال من تَبرير ، وقد أَهمل الاستعدادات الحربية لمقاومة الروم على نحو ما كانَ يفعل الرشيد والمأمون والمعتصم، فانتهزت الإمبراطورة «ثيودوره» غفلة الخليفة وهاجمت بلادَ الإسلام، وذبحتْ من المسلمين آلاف الآلاف ، ولم ينجُ من الذّبح إلاّ مَن اعتنق المسيحية عن إجبار ! كلّ ذلك قد شجع الأتراك على استمالة الشعب نحوهم بادىء الأمر ، فأظهرُوا أنّهم يُحاربون فساد الخليفة ومن يلوذون به، ثم استبدّوا بالأمر ، إلى أن صار الخلفاء لُعَبًا ودُمًى فى أيْديهم . . يقتلونهم ، ويفقئون عيونهم ، ومَنْ عاش رُمِىَ به فى أعماق السجون . لقد كانَ مقتلُ المتوكّل أولَ استبداد هؤلاء الطغاة ، ومن يومها والدولة العباسية فى تدهور أسلمها للضياع .

هذا إلى تحكّم النّساء فى الولاية والعزل ، فالمقتدرُ بالله تولّى الخلافة وهو صبى صغير ، فأصبحت أمُّه صاحبة الأمر فى تعيين الوزراء والقُضاة والولاية، لاَ عن طريق الكفاءة ، بلْ عن طريق الرِّشْوَة لمن يدفع أكبر قدر من الدنانير . وقد امتد حكمُه خمسةً وعشرين عامًا ، والأمورُ فى يد الأتراك يُديرونها ، تاركين لأُمِّ الخليفة أن تنهب مِن الناس ما تشاء ، ثم اشْتد التنافس بين اثنيْن من كبارِ الدولة ، وهما: مؤنِسُ الخادم، القائد العام للجيوش . . والوزير الحسين بن القاسم ، وانتَهى الأمر بقتْل الوزير ، ثم بِقتل المقتدر لأنّه كان يشدّ أَزْره ، وقد ذَبحوه ورفعُوا رأسه على خشبة ، وتركُوا جُثّته فى العراء ، وتُرِكَ مكشوفًا لا يجد من يستره بعدَ أن سلَبَ الناسُ ما عليه من الثياب لما تضمُّ من أسلاك الذهب . ثم حَمَلَه بعضُ العامة ، ودفنوه فى مكان لا يُعْرَفُ !

وإذا كانت قوة الأتراك وصلت إلى هذه الفظائعِ دون أن يَجْرُؤَ على استنكارها أحد ، فقد سقطت هيبةُ الخلفاء ، وانتهزَ ولاةُ الأقاليم الفرصة فاستقلوا بما يملكون دون خضوعٍ لسلطة بغداد ، ومن هنا تعددتِ الولايات المُستَقلة فى مختلف الأنحاء ، ورأى عبد الرحمٰن الناصر صاحبُ الأندلس ما آل إليه ضَعْفُ الخلافة فى بغداد ، فأعلنَ نفسه خليفةً بالأندلس ، ولُقِّب بأمير المؤمنين .

سكت ابن خالويه ، لأنّ حديثه الأليم قد أَثّر فى نفسه فلم يستطع إكمالَ القول كما يجبُ أن يُتمّه ، ورأى أبو فراس ما يَغمُر أستاذه من الألم فقال :

ـ أعرفُ يا سيدى أن هذه الأحداث تطعنُ قَلْبَك بسكّين حامية ، وأنَا أُشاركك اللوعة مشاركةً أجد صداها فى قلبى الواجف المضطرب ، ولكنّى مع ذلك أريد الاسترسال !

قال ابن خالويه : وماذا أَقول ، والمصائب متعدّدة متشابهة ، ويُغنى بعضها عن بعض.

فقالَ أبو فراس : قُلْتَ إنّ الدولة تَقسمت إلى دُوَيْلات ، وأن الأمراء قد انتهزوا ضَعْف الخليفة فأعلنوا الاستقلال ، وأنا أعرف ذلك عَلَى وجه الإجمال، وأريدُ التفصيل .

فسكت ابن خالويه كمن يُحاول أن يَجمع أشتات ذهنه ، ثم قال فى هدوء :

ـ الدُّوَلُ التى انفصلت عن بغداد عربيَّة وغير عربية ، وقد بدأ الانْفِصالُ فى القرن الثالث الهجرى ، ثم توالَى الاستقلال تقليدًا ومتابعة ، فالدولُ الفارسية التى قامت بالاستقلال فى القرن الثالث الهجرى هى :

ـ دولة بنى طاهر فى خراسان ، ومؤسسها طاهر بن الحسين .

ـ والدولة الصّفارية فى فارس ، ومؤسّسها يعقوب بن الليث الصّفار.

ـ والدولة السامانية فيما وراء النهر ، ومؤسّسها نصر بن أحمد السامانى .

ـ والدولة الساجية فى أذربيجان ، ومؤسسها يُوسف بن أبى الساج .

ـ والدولة الطولونية فى مصر ، ومؤسّسها أحمد بن طولون . ومصرُ عربيّة، ولكن أحمد بن طولون من أمراء الأتراك ، فنُسبت إليه الدولة العربية.

أمَّا الدول العربية التى فى القرن الثالث ـ وبعضُها أنشىء فيما قبله لحوافز استوجبت ذلك ـ فهى :

ـ الدولة الإدريسيّة بمراكش ، ومؤسّسها إدريس بن عبد الله .

- الدولة الأغْلبيّة بتونس ، ومؤسّسها إبراهيم بن الأغلب .

- الدولة الدّلفية بكردستان ، ومؤسسها أبو دلف العجلى .

- الدولة العلوية ببطرستان ، ومؤسسها الحسن بن زيد .

هذه هى الدول التى أُنشئتْ فى القرن الثالث . وإذا كان الخيرُ قد يأتى من الشَّرِّ ، فإنَّ هذه الدول قد ساعدت على نهضة الأقاليم التى استولَى عليها المؤسسون ، إذْ وَجّهوا همهمَ إلى إنهاضها ومراعاة أحوالها العمرانية ، بعد أن كانَ وُلاةُ العباسيين لا يهمّهم غير جَمْع الأموال ، وإرسال الخراج الباهظ إلى بغداد ، تاركين ما تطلبه الدولة من شئون العمران ، وكأنّه ليس فى حسابهم ، مع أنّ الاهتمام بهذه الشئون مما يُسَبِّب الرخاء .

سَكَت أبو فراس قليلاً ، ولكنّ وجهه كان يشى بأُمور أليمة تعتلج فى خَاطره ، وهَذَا ما لَم يَفت أُستاذه ابن خالويه ، فقال له : فِيمَ تُفكّر أيها الأمير ؟ يبدو أَنَّ حديثى قد شغلك كثيرًا !

فعجل أبو فراس يقول : نعمْ شغلنى ، لأنّى أخذتُ أفكّر فيما جدّ من الدُّول بعد القرن الثالث الذى اكتفيت بالحديث عنه ولا أدرى لماذا !

قال ابن خالويه : أعرفُ أن إحاطتَك بما حَوْلك ومَن حَوْلك دفعتْكَ إلى استكمال ما بدأتْ ، وإذا كنتَ تعلمه يا سيدى فلماذا أفيض فيه؟

قال أبو فراس : أنا أعلمُ بعضه ولا أعلم جميعه ،فَبِربِّكَ إلاّ استرسلتَ فشفيت .

قال ابن خالويه : إن أمراء الدول المستقلة لا يَهْنئون بمضجع ، فَمعَ قُوَّتِهم البالغة ، يَجدونَ من الخُصوم من يحاولون الانقضاض عليهم؛ فتدور حرب بين الفريقين ، تبعًا لأطماع الرؤساء ، والناسُ من خلفهم حَيارَى لا

يَسْتريحون ، فمثلاً نجد الدولة البُويْهية قد أسَّسها عماد الدولة على بن بويه بمساعدة أخيه ركن الدولة حُسَيْن بن بويه ، وقد مَدّت رواقها على أصفهان، ثم أخذتْ تتسع فى قوة حتى احتلتْ بغداد ، وأصبح عضد الدولة الآن كلّ شىء بها ، وله هيبة تُفزِع قلْب الأسد ، لأنّه باطش لا يرحم، وقد هدَم منازلَ أهل السنة ، وأعلَنَ التشيّع، فنحنُ شيعةٌ مثله ، ولكنَّ الرفق أجدر وأولى .

قال أبو فراس : أعرف كثيرًا من وقائعه ، ولكنى ما كنت أُقَدِّر أنه حَازَ هذا السلطان المديد !

فرد ابن خالويه : حَازَهُ بمحاربة إخْوته وأبناء أُسرته ، والمُلْكُ ظلوم لا يرحم .

فضحكَ أبو فراس ضحكةً عالية ، ثم قال : تَقول أُسرته ؟ كأنّك تتحدثُ عن كسرى وأرد شير !

فهزّ ابن خالويه رأسه وقال: أُرَفِّه عَنك بهذه القصّة ، فهى مصداقٌ لما تقول:

كانَ جدُّ الأسرة أبو شجاع بُويه من أبناء الديْلم ، وكانَ من الفقر والحاجة بحيثُ ظَلَّ موضع عطف الأثرياء. وكان شهريار بن رُستم الديلمى رئيسًا فى قومه ، ويشمل ابن بويه بعطفه ، وقد رأى أن يزوره مُعَزِّيًا فى وفاة زوجته ، فوجدَ أبناءَهُ عَليًّا والحسن وأبا الحسين من حوله ، وهمْ فى حالة حزن ، ولا يظهرُ فى المنزل ما يَدلّ على طعام أو شَراب ، فخرج شهريار، وذهب إلى بيْته وأحضر من الطعام ما يكفى . وجمع الأب الإخوة الثلاثة حول الخوان ، وهنا دَخل منجّم يرتدى لِباسَ المشعوذين ، وقَالَ لبويْه : لقد بعثتَ مُنذ أسبوع تستزيرنى ، وهأنذا أقبلتُ . فقال شجاع :

رأيتُ رؤيا مناميّة تنصُّ على أن نجومًا ثلاثة نزلت من السماء وأشرقَتْ فى بيتى ، وأريد تفسيرها . . فقال المنجم : لا أُفَسِّرُهَا إلاّ بخلعة عظيمة وفرس. فصاحَ بويه : أنتَ مجنون ؟ والله ما أملك غير هذه الثياب على جَسَدى . فقالَ المنجم : اعلمْ أنَّ أولادك الثلاثة سيكونُون مُلوكًا ويُشرقُون فى الأرض كما تشرق النجوم فى السماء . فصرخ بُويه فى وجهه وقال: أتَستهزىءُ بنا ؟ أنا رجُلٌ فقير وأولادى مساكين ، ثم تقُول يصبحون ملوكًا؟

ثم قالَ ابن خالويه : الغريب أن الرؤيا تحققتْ وأنّهم لم يصبحوا ملوكًا فقط ، بل صاروا جبابرة !

قال أبو فراس : هذه رواية لفّقها الإخباريون ، إذْ من البداية أن المشعوذ لا يعلم الغيب .

فابتسم ابن خالويه قائلاً : وأنَا أميل إلى ذلك . ولكنْ للرواية الـمُلَفَّقَة دلالتها التاريخية ، فهى تحكى واقعًا عمليًّا ، هو أنّ بويه وأولاده الذين يتجبّرون فى الأرض ، أَتَى عليهم حِينٌ من الدهر لم يجدوا فيه طعام الغداء ، وحين ملكوا الأرض نهبُوا الأموال ، وصادَروا الموسرين !

فهَزَّ الأميرُ رأسه موافقًا ، وسألَ : ومَن غير بنى بويه مِنْ رؤساء الدُّول التى انْبعثتْ فى القرن الرابع ؟

قال ابن خالويه :

- الدولة الزيارية فى جرجان ، ومؤسسها مرداويج بن زيار .
- والدولة الأبكيّة فى تركستان ، ومؤسسها عبد الكريم ستق .
- والدولة الإخشيدية فى مصر ، ومؤسسها محمد الإخشيدى .

ـ والدولة الغزنوية فى أفغانستان ، ومؤسّسها سبكتكين ، وأعظم ملوكها البطل الفاتح محمود الغزنوى . .

ثم سكت ابن خالويه ، فتطلع إليه الأمير وقال : عجبًا ! لم تذكرْ دولتَنا ، دولة بنى حمدان ، فى حلب والموصل . . وهى أهم دولة عربية فى القرن الرابع الهجرى !

فابتسم ابن خالويه ، وقال : كيف أتحدث عن الشمس الساطعة ، ونورها يبهر العيون ؟! إن الدولة الحمدانية ستظل مديدة الظل ، عبقة التاريخ ، تزولُ الجبال ولن تزول .

فقال أبو فراس : حقّق الله رجاءَكَ يا أستاذى ، فَادعُ الله معى أن يَحفظ بنى حمدانِ من كل سوء !

فرفع ابن خالويه كفه داعيًا ، ثم سَأَلَ أبا فراس : أتخافُ على بنى حمدان من شىء وقد قَهرُوا الرومِ وأعَزّوا الإسلام ، ولولاهم لضاعت هيبةُ العرب والمسلمين؟

فقالَ أبو فراس : لن أَخافَ على قومى من شىء ، ولكنّى أجدُ الثّورات لا تنقطع ، وقد حَدّثْتَنى عن الدول المستقلة فى الشرق والغرب ، وهى ذات استقرار نسبى ، ولكنّ الطوائف الثائرة من أهل المرُوق هى التى تُحدث الكَدَرَ والانزعاج ، وهى تحارب فى الظلام لا فى الضياء ، وأسلحتها الغدر والاغتيال .

قال ابن خالويه : لم يغِبْ عنى ما تعْنيه من مآسى القرامطة ومكائد العرب مِن حولنا ، ولَنا الله من أولئك وهؤلاء .

قال أبو فراس : أما مكائد العرب فَأَنَا أصطلى بنارها ، وقد قُدْتُ الجيوشَ فى أكثر مواقعها ، وَنِلْتُ إعجاب سيدى سيف الدولة بما أحرَزْتُ من نجاح . وأمّا القرامطة ، فأنا لا ألمُّ بالدقيق من أخبارهم ، ولعلّك تأتى الآن بما يفيد .

فتنهد ابن خالويه ، وقال فى غيظ : القرامطة ! القرامطة ! قاتلهم الله أنَّى يُؤْفَكُون ! فمع بُزوغ القرن الرابع تسلّط الحسنُ بن برهام الجنابى على هَجَر ، والأحساء ، والطائف ، وسائر بلاد البحريْن ، وَادَّعَى أنه خليفة الله وحاملُ لواء الشريعة ، وأَباحَ أموالَ الناسِ وأعراضهم ، كما فعل الزنج بالبصرة ، فتبعه أولو الشهوات أنَّى اتَّجه ، ولم يَرض إلاّ أن يتملَّك العراق ، غير مقتنع بما ملك فى الجزيرة العربية من بلاد ، وبإغراء الشهوات من النساء والأموال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، يدفع الرعاعَ إلى القتال مُستبسلين ، وفيهم من يَحلم بأن يكون سيّدًا يخضع له الأرِقَّاء من البيض ، ولو صَدقَ القول فى تحرير العبيد ، لما حَلمَ بأن يكون له عبيدٌ آخرون وهبهُم الله حُرية الحياة !

لقد دخل القرامطة بقيادة أبى طاهر الجنابى البصرة ، فوضع السيف فى أهلها قرابة سبعة عشر يومًا ، حتى لم يَبْقَ فيها غير الشيوخ والزَّمْنَى والأطفال، وحَمَلَ كلّ ما قدر عليه العبيد مِمّن معه من الأموال والحلىّ والقلائد، ولما كثر ما حمل جَعلَ يرمى الصغير ليحتفظ بالكبير ، إذ لا مكان للجميع ، وانتقل إلى الكوفة فى العام التّالى ليمثل الدور الذى صَنعه بالبصرة، فَقَتَلَ وسَفَكَ ونهب ، وحمل كلَّ ما قدر عليه من المال والعتاد ، وكرَّ رَاجعًا إلى هَجَر . . وشجعه انتِصَارهُ فى البصرة والكوفة على اقتحام

العراق ، فقامَت المعارك الحامية فى الأنبار والرَّقَّة ! وليتَ الأمر وقف عند ذلك ، بل ارتحل إلى مكة لينْهَبَ أموالَ الحجّاج ، ومِنْ أكبر كبائره أنه اقتلعَ الحجر الأسود من مكانه وحمله إلى هَجَر ، وانقطعَ الطريق إلى الحج ، فلم يستطعْ أحد أن يقوم بالفريضة ، وشاءَ الله أن يقع بأس القرامطة بينهم ، فاختلفوا ، وقَتَلَ بعضهم بعضًا ، ومع ذلك فقد هدأتْ ثائرتهم ، وجَمعوا جموعهم ، وتركوا العراق إلى الشام ، فاحتلّوا دمشق بقيادة الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى ، ومن دمشق إلى الرملة . . وكان فى عزمهم أن يصلوا إلى مصر ، وفعلاً بدت طلائعهم فى عين شمس ، فقابلهم المعز الفاطمى وحَمَلَ عليهم حملة شَتَّتَتْ جُموعهم . فكرّوا مدْحورين إلى الشام ، ومنها إلى الأحساء!

كان ابن خالويه يتحدث وأبو فراس يفغر فاه دهشةً من غرائب ما يسمع وهو يصيح : أَيُعْتَدَى على حجاج بيت الله !؟ أَيُؤْخذُ الحجر الأسود من مكة إلى الأحساء !؟ أتَنْهزم البصرة والكوفة ودمشق والرملة والأنبار والرّقة، ويطمعون فى مصر ؟

ثم سأل ابن خالويه : ألهؤلاء قُوَّةَ اليومَ كما كانت بالأمس ؟

فقال الشيخ : لا يأسَ من روح الله ، وقد وَعد بالنصر عباده المتقين !

قال أبو فراس : إنهم يزعمون أنهم المتّقون ويتسمّون بأسماء علىّ ، والحسَن ، والحسين ، والطاهر . . فكأنّهم من إخواننا أهل البيت ، ويصدّق الناس هذا الإفك الصريح !

فعاجله الشيخ قائلاً : قلتُ لا يأس من روح الله ، ولن يُغْلَبَ

وطـن بـه آلُ حمدان ، بِه سيـدى سيف الدولة وقائده البطل الشجاع سيدى أبو فراس !

فَنَهَضَ الأميرِ واقفًا وهو يقول لأستاذه : أشكرك يا سيدى ، فقد تحدثتَ عن هذا الزمن الأغبر ببعض ما لم نكنْ ندريه .

من الشعراءِ من يكتفى فى ثقافته بالشعر وحده ، فهو يقرأ دَواوين الشعر العربى ، ويجعلها مصدر معانيه، ومنبع ثقافته ، وهؤلاء لا يبلغون الأَثَر العظيم فيما ينظمون ، إذ لا بدّ من ثقافة أدبيّة واجتماعية وعلمية ترفد الشاعر بالمعانى الغزيرة ، وتجعلُه رأْسًا بين المتأدبين . ومن الشعراء الذين تجدُ أثر الثقافة واضحًا فى نتاجهم الشعرى: أبو تمام ، والشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى . وقد تَرَكَ الأخيران من الآثار العلمية ما أجْلَسَهما مجلس العلماء الكبار ، وهما من رِجال الصف الأول فى الشعر العربى .

أمّا أبو فراس؛ فقارىءُ شعره يُدرك ثقافَته التاريخية الواسعة ، ويعلمُ أنه أحاط بالتاريخ العربى جاهليّه وإسلاميّه إحاطةً بارزة ، إذْ كانَ من همه أن يكون مثقّفًا مستنيرًا ، ينفحُ المجالس الأدبية بروايته الشعريّة الواسعة واطّلاعه التاريخى المديد ، وهذا حَسْبه ، فليسَ من همه أن يدْرس علوم الحضارة الإنسانية ؛إذْ لَها رجالها المتخصصون . وقارىء شعره يلمس أَثَر هذه الثقافة التاريخية ، وقد كان من الممكن أن نَخُصَّهَا بتفصيلٍ مُتَّئِدٍ يُبَيِّنُ مراميها الدقيقة، ولكنّنا نكتفى بالتمثيل ، فَهُوَ الشاهدُ الذى يَدْعم ما نقول، وهَا هِىَ ذِى بعضُ الأمثلة. يقول أبو فراس [1] :

(١) الديوان : ص ٤ .

وقَــد علــمتْ أُمّــى بـأنَّ مَنِيَّتِى | بحَـدِّ سنــانٍ أو بحَـدِّ قضـيبِ
كما علمــتْ من قبل أن يَغْرقَ ابنُهــا | بمهلكــهِ فى المــاء أمُّ شَــبِيبِ
وللعــار خَـــلَّى ربُّ غســانَ ملكهِ | وفــارقَ ديــنَ الله غــيرَ مُـصيبِ
ولم يرتغبْ فى العيش عيسى بن مُصْعَبٍ | ولا خَفّ خـوفٌ بالحَــرونِ حــبيبِ

فهذه أبيات أربعة تتضمّنُ الإشارة إلى أحْداثٍ تاريخية أربعة، أوّلُها : الإشارة إلى أُمّ البطل شبيب الخارجى ، وقد دَوّخَ الأُمويِّينَ فى معاركه ، وكانتْ أُمّه تتوقع موته ، وقد رأتْ فى منامها أنها ولدتْ نارًا ، فلما بلغتِ السماءَ وَقَعت فى ماءٍ فأُطْفِئتْ، فكانَ يُقال لها : مات ابنك ! فتقول : لاَ . فيقالُ لها : قد قُتِل ! فتقول : لا . فلمّا قيل لها قد غَرِق ـ وهذا ما كَان ـ بكَتْ ونَاحَتْ عليه تصديقًا لرؤْيتها .

والثانى : الإشارةُ إلى قِصَّة جَبَلَة بن الأَيْهم الغَسَّانى ، وهى قصة شهيرة ، إذ أَسْلَم الملكُ ونَزل المدِينَةَ لزيارة عمر بن الخطاب فى حفل من حاشيته ، ثم لَطَمَ وجهَ أعرابىّ من « فزارة » داس لِباسَه ، فشكا الأعرابى إلى الفاروق ، فصمم على القصاص ، وخافَ جبلةُ من ذلك ، فهربَ ليلاً ، ومعَه ثلاثون أَلْفًا من جُنده ، ثم نَدم على تَنَصُّرِهِ !

والثالث : إشارةٌ إلى عيسى بن مُصعب الزبيرى ، وكَان صَبِيًّا يقاتل مع أبيه مصعب ، فلما تَيَقَّنَ مصعب أن الدائرة ستدورُ عليه ؛ قال لولده الصبىّ : يا عيسى ، انجُ بنفسك فأَنَا الغَداة مقتول ، وستُقْتَلُ معى إنْ بقيت ، فأبى الابن وقال : إذا كانَ القتل حتْمًا فسأُقْتَلُ معك . وقَاتَلَ حتى قُتِل ، وفيه يقول بعض الشعراء :

فلو كانَ حُرَّ النفْس أوْ ذا حَقِيقةٍ | رَأَى ما رَأَى فى الموتِ عيسى بنُ مُصعَبِ

والرابع : إشارة إلى حبيب بن المهلّب، وكان يُسمّى بالْحَرُونِ لشدّته وصلابته ، وإذا غَشى الحرب لم يَلْحقه خوفٌ لقوة جنانه ، وفى بعض طبعات الديوان (طبعة دار صادر) جاء البيت هكذا :

ولم يرتغب فى العيش عيسى بن مصعب

ولا خَفَّ خَوْفَ الحـرب قَلْبُ حبيبِ

والرواية الأولى هى المعتمدة ، لأنها روايةُ ابن خالويه !

٢ ـ يقول أبو فراس [١] :

إذا كـانَ غيـرُ الله للمـرء عـدّةً أتتْه الـرزايا من وُجوهِ الفوائِـدِ

فقد جَرَّتِ الحَنْفَاءُ حَتْفَ حُذيفة وكـانَ يـراها عُدةً فى الشدائدِ

وجـرّت منايـا مالكِ بـْن نُوَيْرَةٍ عَقيلتُه الحسناءُ أَيَّـامَ خالـدِ

وأَرْدَى ذُؤابــًا فى بُيـوت عُتَيْبَـةٍ بنـوه وأهلُوه بِشَدْوِ القصائـدِ

ففى الأبيات ثلاثُ إشارات إلى أحداثٍ تاريخية . . ففى البيت الثانى إشارةٌ إلى (الحنْفاء) فرس حُذيفة بن بدر ، حيثُ صَمَّمَ قيسُ بن زهير على قَتْله بعد وقائعه فى حَرب عَبس وذُبْيَان ، فأخَذَ يَتَتَبَّعُ فى البادية أثرَ (الحنْفاء) ـ وهوَ معروفٌ لديه ـ حتى لحق به على ماء الهباءة ، فقتَلَه وإخوتَه ، وأنشأ يقول[٢] :

شَفَيْتُ النفسَ من حَمل بن بدرٍ وسيْفـى مـن حُذَيْفَةَ قد شفانِـى

فَـإِنْ أَكُ قـدْ بَـردتُ بهم غَلِيلى فلـم أقْطَـعْ بهـم إلاَّ بَنانـى

(١) الديوان : ص ٨٩ .

(٢) حماسة أبى تمام (باب الأدب) .

وفى البيت الثالث إشارةٌ إلى خالد بن الوليد حين قاتَلَ أهل الرِّدَّة ، وحَارَبه مالكُ بن نُويرة ، فقيل إنّ خالدًا رأى زوجتَه فأُعجب بها وقتله ، ثم أَعرس بها ، فَلامَه عمر بن الخطاب لَوْمًا شديدًا . ولعلّ الرواية ذاتُ مبالغة إذْ لا يُعقل صُدور ذلك عن خالد ، أَمَّا زَواجُه بامرأةِ مالك ، فأمرٌ متبعٌ فى الحروب دُون أن يكون هناك سَابق نِيَّة كما تزعم الرواية .

وفى البيت الرابع إشارةٌ إلى ذُؤاب بن ربيعة حين قَتَل عُتيبة بن الحارث ، ولم تعلمْ ربيعةُ بمقتله وقد أسرَت ذؤابًا فى الحرب وهى لا تَدرى أنّه قاتل عُتيبة ، وجاء والدُ ذؤاب فافتداه بمائة ناقة ، ولو علمت ربيعة ما تركتْه يعيش فى الأَسْرِ حَيًّا ، بل قتلته ولم تقبل الفداء .

٣ـ يقول أبو فراس ، ناقدًا بنى العباس (١) :

كم غَدْرةٍ لكمُ فى الدين واضحةٍ ... وكمْ دمٍ لرسول الله عندكمُو

يا جاهدًا فى مَساويهم ليكتمها ... غدْرُ الرشيد بيحيى كيفَ ينكتمُ؟

ليسَ الرشيد كموسى فى القياس ولاَ ... مَأْمُونكُم كالرِّضا إنْ أَنصف الحَكَمُ

ذَاقَ الزبيريُّ غِبَّ الحنْثِ وانكشفتْ ... عن ابن فاطمة الأَقوالُ والتُّهَمُ

باءُوا بقتل الرضا من بَعدِ بَيْعَته ... وَأَبْصَروا بَعضَ يوم رُشْدَهُم وعَمُوا

لاَ عن أبى مُسلم فى نُصْحِه صَفَحُوا ... ولا الهُبَيْرِىُّ نَجَّى الحلفُ والقَسَمُ

ولا الأمانُ لأَزْدِ الموصلِ اعتمدوا ... فيه الوفاءَ ولا عَن عَمِّهِمْ حَلُموا

يُريد فى قوله (غَدْر الرشيد بيحيى كيف ينكتم) ما قامَ به الرشيد من المواثيق ، وما عَقَدَ من الأيمان كى يستسلم لَهُ يحيى ناجيًا بنفسه آمِنًا من كل

(١) الديوان : ص ٢٥٨ .

شَرٌّ ، ويَحيَى هو ابن عبد الله بن الحسن ، ظَهرَ بالديلم ودعَا الناس لنفسه ، فاجتمع حولَه جَمْعٌ حاشد ، وخافَ الرشيدُ العاقبة ، فآثرَ الخدعة وبَعَثَ له بالأمان المطلق ، ثم نَكَثَ العهدَ وقتله . قالَ ابن خالويه : وقد قَتَل الرشيدُ من آل أبى طالب ستمائة نفر !

وأما قوله (ليس الرشيد كَمُوسى فى القياس ولا مأمونكم كالرضا) فمقارنة بين الرشيد وموسى الكاظم ، وبين المأمون وعلى الرضا ، وكلاهما ماتَ غَدْرًا بَيدَىِ الرشيد والمأمون . أمّا الزبيرىّ ؛ فهو عبد الله بن الزبير ، وقد بايَعَ عليًّا بالخلافة ثم نكثَ فى بيعته ، وقيل إن الذى بايعَ أَبُوه ، ولكنّ ابنه عبد الله لامَهُ ، ومازَالَ به حتى نكثَ البيعة . وأمر المنصور مع أبى مسلم ويزيد ابن هُبَيْرة معروف ، وإليه أَشارَ أبو فراس بالبيت (لا عَن أبى مسلم فى نصحه صَفَحُوا) والقصيدة كلها ذات إشاراتٍ تاريخية لا يتسع المجال للاستشهاد بها ، وتدلّ أول ما تدل على ثقافة للشاعر رحبة الاتجاه ، وبخاصة فى التاريخ العربى جاهليّه وإسلاميّه ، وما أحبّ أَنْ أزيدَ من الاستشهاد بما جاء فى الديوان؛ إذ المقام مقامُ تمثيل فحسب ، فإذا تركنا جانب التاريخ إلى جانب الشعر؛ نجدُ ما يدلُّ على أن أبا فراس قد دَرسَ التُّراث الشعرى دراسةً مستوفاة ، وشهد له بذلك مَن طَارَحُوه الشعر من بنى أُسرته، كأبى زهير الحمدانى الذى أخلص للشاعر الوُدّ ، فجازاه وفاءً بوفاء، وبعثَ إليه من القصائد ما أَجَاب عنها أبو فراس فى حرارة وإخلاص، وكان مما قال[1] :

وردتْ عنكَ يَا بْنَ عمى هدايا ... تتهادَى فى سُنْدُسٍ وحريــرِ
بقــوافٍ ألــذَّ مـن بـاردِ المـاء ... ولفــظٍ كاللؤلــؤِ المنثـــورِ

(١) الديوان : ص ١٢٢ .

محكمٌ قَصَّرَ الفرزدقُ والأَخْطَلُ عَنْهُ وفـاق شعـــرَ جريـــرِ

وكذلك القاضى أبى حصين ، وكان من خُلصاء أبى فراس ، وقد أرسل خطابًا لأبى فراس يعبر عن مشاعره الصادقة ، فردَّ عليه بقصيدة طويلة ، قال فيها عن خطابه[1] :

أَمَّـا الكتـابُ فإنـى لستُ أَقْرَؤهُ إلاَّ تبـادَرَ مـن دَمْعِى بـوادِرُهُ

يَجرى الجُمانُ على مثل الجُمانِ به ويَنثرُ الـدرَّ فـوق الـدُّرِّ ناثرُهُ

وفى هذه القصيدة ما يدل على أن القاضى كان استثناءً من معارف أبى فراس ، إذْ هو وحده الصادق الوُدِّ ، وهو بوفائه اعتذارٌ قَدَّمه الدهر لأبى فراس حين بُوغِتَ بخيانة الأَصدقاء . يقول الشاعر[2] :

أَبَا الحُصين وخيرُ القـول أَصْدَقُه أنتَ الصديقُ الذى طابَتْ مخابرُهُ

لولاَ اعتذارُ أخلاَّئِى بك انصرفوا بِوَجْـه خــزيانَ لم تُقبَلْ مَعَـاذِرُهُ

ومكانةُ أبى فراس بين شعراء الحضرة فى حَلَب مرموقة، إذْ كانُوا يعلمون منزلته فى البيان ، ومكانَه من بنى حمدان ، فيحفظونَ له قدره، ولكنَّ هَناتٍ وقعتْ بينه وبين المتنبى ، لم يكن أبو الطيب باعثَها بالنسبة إلى أبى فراس، وإنما هى عوامل مختلفةٌ ساعدت على البغضاء ، بوَحْيٍ من الموتورين من المتنبى ، وقد كان أبو الطيب يعرف مكانة أبى فراس ، ومنزلته فى بنى حمدان ، فيحاول مُلاينته ما استطاع . يقُول أبو منصور الثعالبى[3] : «وكانَ المتنبى يشهد له بالتقدّم والتبريز ، ويتَحامى جانبه فلا ينبرى لمباراته ، ولا يَجترىء على مُجاراته » ، وهو سلوكٌ سياسىٌّ حَصِيف ، لأنّ المتنبى إذَا جَابَه

(١) الديوان : ص ١٢٩ .

(٢) الديوان : ص١٢٩ .

(٣) اليتيمة : جـ١ ، ص ٣٥ .

أمثال السَّرِىّ الرفاء ، والناشىء ، والخالديين من شعراء الحضرة ، فلنْ يستثير ملامة سيف الدولة ، إذْ أَنَّ ابن أخيه هو ابنُ أخيه ، وليسَ لمادحٍ مرتزق أن يتطاولَ عليه ، ولكنّ الوقيعة قد تَمَّتْ حينَ هجا أبو الطيب شعراءَ الحضرة ، وعَدَّ نَفْسَه الشاعِرَ الأوحد حين قال مخاطبًا سَيْفَ الدولة :

أَجِـزْنى إذا أُنشــدتُ شعرًا فَإنَّـما بِشِعْـرى أتَــاكَ القائلـون مُـرَدَّدَا
وَدَعْ كلَّ صوتٍ غير صوتى دائمًا أَنا الطائرُ المحكىُّ والآخر الصَّدَى

وحين قال :

أَرَى المتشاعِرِيـنَ غُـــرُّوا بذَمِّى ومَــن ذا يحمــد الــداءَ العُضَالا
ومَــن يـكُ ذَا فَــمٍ مُـرٍّ مَرِيضٍ يَجِـدْ مُــرًّا بــه المــاءَ الزُّلاَلاَ (١)

وحين قال :

ولا تُبــالِ بشـعْرٍ بعـد شاعِــرِهِ قد أُفْسِدَ القولُ حتى أُحْمِدَ الصَّمَمُ(٢)

فهذا القول ينالُ أبا فراس ضِمْنًا ، لأنّه من مادحى سيف الدولة ، فكيف يكون ممن يجىء فى شعره بشعر أبى الطيب مردّدًا ؟ وكيف لا يُبَالى سيف الدولة بشعر غير شعر المتنبى ؟ وكيف يكون بين المتشاعرين لا الشعراء ؟ ! هذا كلّه يحمل معنى الاستخفاف الضمنى بأبى فراس ، وهذا ما لم يَفُتْ شعراء الحضرة ، فَذَهَبوا إلى أبىَ فراس وأَوْغَرُوا صدره برواية ما قال أبو الطيب ، وقد استَمع إليهم فوجَد فيما يقولون رائحةَ الصدق ، إنْ لم يكن هو الصدق بعينه ، فذهب إلى سيف الدولة وقَالَ له : لماذا تُعطى المتنبى ثلاثة آلاف دينار ثمنًا لقصيدة واحدة يقولها فى العام ، وعندكَ من شعراء الحضرة من يرضى بعشرين دينارًا فى القصيدة ؟ وقد استَمع سيف

(١) ديوان المتنبى : جـ٣ ، ص ٣٤٤ .

(٢) ديوان المتنبى : جـ ٤ ، ص ١٤٢ .

الدولة ولم يجب؛ لأنه يعرف أنّ شعر المتنبى من طرازٍ خاص لا يصل إليه سواه .

ثم حانت الواقعة ، يومَ رأَى أبو الطيب أنّ خصومه قد غَيَّـرُوا قَلْبَ سيف الدولة عليه ، فهاجَ هائجه، وقال قصيدته الشهيرة (وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قلبهُ شبمُ) ، وكانَ أبو فراس بَيْنَ من حضروا مجلس الإنشاء وصَدْرُه غيرُ سليم من ناحية المتنبى ، فجعَل يعارضه فى حَومَةٍ تَحَدَّثَ عنها البديعى فى صُبح المنبى ، ونحنُ ننقل ما دار كما رواه صاحبُ الصُبح لشىء واحد ، لنثبت مَبْلغ رواية أبى فراس ، وحِفْظَهُ لروائع الأدب ، مما يجوزُ أن يُسجّل فى فصلٍ يتحدث عن ثقافته ، فقد قال المتنبى فى هذه القصيدة (١):

يا أعدلَ النَّاس إلاَّ فى مُعاملتى

فيكَ الخصامُ وأنْتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

فقال أبو فراس (٢):

وَلَسْتُ أرجُو انتصافًا منكَ ما ذرفتْ

عينى دموعًا وأنْتَ الخصْمُ والحكمُ

ثم قال المتنبى :

أعيذُهَا نظراتٍ منـكَ صادقـةً أنْ تحسبَ الشحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

فعلم أبُو فراس أنَّه يَعْنيه ، فَقَالَ : ومَن أنت يا دَعِيَّ كِنْدة حتى تأخذَ أعراض أهل الأمير فى مجلسه ؟ فاستمر المتنبى فى إنشاده ولم يردّ؛ إلى أن قال:

---

(١) القصيدة مشهورة ، وهى بديوان المتنبى

(٢) الصبح المنبى : ص ٨٩ ، طبعة دار المعارف .

سيعلمُ الجمعُ مِمَّنْ ضَمَّ مجلسُنا   بأنَّنى خَيْرُ مَن تَسْعَى بـه قدمُ

أنا الذى نَظَرَ الأعْمَى إلى أَدَبِى   وأَسْمَعْت كلماتِى مَنْ بـه صَمَمُ

فزَادَ ذلك غيظًا فى أبى فراس ، وقالَ : سرقتَ هذا من عمرو بن عروة بن العبد ، فى قوله :

أَوْضَحْتُ من طرقُ الآدابِ ما اشتَكَلتْ

دهـرًا وأظهـرتُ إغـرابًا وإبـداعَـا

حَتَّى فَتحتُ بإعجـازٍ خُصِصْتُ بـه

للعُمْيِ والصُّـمِّ أَبْصَـارًا وأسماعَـا

ولما وصل المتنبى إلى قوله :

الخَيـلُ والَّليْلُ والبَيْـداءُ تعرفـنى - وَالسَّيفُ والرُّمْحُ والقِرْطَاسُ والقَلمُ

قال أبو فراس : وما أبقيتَ للأمير إذْ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الأمير ؟ أما سرقتَ هذا من قول الهيثم بن الأسود النخعى الكوفى المعروف بابن العريان العثمانى :

أعـاذلتى كـمْ مَهْمَـهٍ قـد قَطَعْتُـهُ

أَليـفَ وحـوشٍ سـاكنًا غـير هـائبِ

أنا ابن الفلاَ والطعنِ والضربِ والسُّرى

وجُـردِ المُذاكـى والقَنَـا والقـواضِبِ

حـليمٌ وقـورٌ فى البـوادِى وَهَيْبَتـى

لهـا فى قلـوب الناسِ بطـشُ الكتائـبِ

فقال المتنبى :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظرِه   إذَا استوتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

فقال أبو فراس : وسرقتَ هذا من معقل العجلى ، وهو :

إذا لم أُمَيِّزْ بين نُورٍ وظلمةٍ   بعينيَّ فالعينان زُورٌ وَبَاطِلُ

وغضبَ سيف الدولة من كثرة مناقشته فى هذه القصيدة ، وكثرةِ دعاويه فيها ، وضربه بالدواة التى بين يديه ، فقال المتنبى فى الحال :

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حَاسِدُنا   فما لجُرحٍ إذَا أرضاكُمُ أَلَمُ

فقال أبو فراس : أخذتَ هذا من قول بَشَّار :

إذا رَضيتُم بأن نُجْفَى وسَرَّكُمُ   قَوْلُ الوُشَاةِ فلا شَكْوى ولا ضجرُ

ومثله قول ابن الرومى :

إذا ما الفجائعُ أَكْسَبَتْنِى   رضاكَ فما الدَّهْرُ بالفاجعِ

فلم يلتفت سيف الدولة إلى ما قاله أبو فراس ، وأعجبه بيت المتنبى ، ورضى عنه فى الحال ، وأدناه إليه ، وقبّل رأسه وأجازه بألف دينار ، ثم أردفَه بألفٍ أُخرى .

وأقولُ : إن أبا فراس قد تجنّى على المتنبى فى كُلِّ ما حكم بسرقته ، لأنّ توارد الخواطر العامة أمرٌ معروف ، ولو نظرنَا إلى شعر أبى فراسٍ لوجدنا فيه تشابهًا بينه وبين مَنْ سبقوه ، وهذا لاَ يخْلُو منه ديوان شاعر ، ولكنى أشرت إلى هذه المناقشة لأُبَيِّنَ ثقافة أبِى فراس ، وإحاطتَه بالكُنوز الدفينة فى الشعر العربى ، فالأميرُ مُثَقَّفٌ مستنير ، جَمعَ بين الشعر والتاريخ فى اتجاهه الفكرى ، فكَان مثلاً لفارسٍ لم يُشْغِلْهُ مكانهُ فى الدولة عن البحث والدرس ، كغيره مِمَّنْ آثروا الدَّعة والسكون . . ولكنّه مع موهبته الشاعرة قد قرأ واستوعب ، ولو امتدتْ به الأيام لأبرز مختاراتٍ من محفوظه على نحو ما صنع البحترى وأبو تمام .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

غَزَلُ أبى فراس مما يُتَنَازع فيه ، فقد كان كَتُومًا ، صبورًا ، تتأجج الصبوةُ فى نفسه ، فيرفّه عن ذات صدره ، ثم يأبَى عليه ترفّعه أنْ يَعترف بمن يُحب ، وإنما هى أبياتٌ حارَّة تشتعل باللَّوْعة ، وتُنبىء عن الحنين كما يُنبىء الوهجُ الحار فوق الرماد بما تحته من جمر لفَّاح .

ترى أيّة فتاة يمكن أن تملك قلب أبى فراس ؟ ليس لدينا غير الديوان ، والذى يتأمله تأمّل الفاحص الدارس لا تعِزّ عليه أن يعرف هذه الكريمة المحتد، الأصلية الحُسن والمنبت ، الجديرة بقلب أبى فراس . . إنها ابنة عمِّه ناصر الدولة ، ولها من الصِّيتِ فى دنيا الجمال والكرم ما لخولة أُخت سيف الدولة ، غير أنّها فى سِنّ أبى فراس ، شابّة مثله ، ذاتُ أَمَل مورق فى عهدِ ناضر . لقد تأملتُ قصيدةً قالها أبو فراس بمناسبة سفرها إلى الحج بمكة ، فَعَرفْتُ لوعةً كاوية تَتَّقد بين الأبيات ، وشاهدتُ من العواطف ما ينبىءُ عن قلب حَنَّان يعج بالصبوة ، ويَتدفق بالحنين ، وليقرأْ معى القارىءُ هذه الأبيات (١) :

وفِيمن حَوَى ذَاكَ الحَجِيج خريـدةٌ   لها دُون عَطْف السِّتْر من صوْنها سترُ

(١) الديوان : ص ١٣٢ .

ففى الكُمِّ كـفٌّ لا يراهـا عديلُها   وفى الخِـدْرِ وَجْـهٌ ليس يعـرفُه الخدر

فهـل عرفـاتٌ عارفـاتٌ بزوْرهـا   وهلْ شعرتْ تلك الأماكنُ والحجْرُ ؟

أما اخْضَرَّ من بُطنان مكة ما ذَوَى   أما أعْشَبَ الوادى أما أَنْبَتَ الصخرُ؟

أُشيّعُه والـدمعُ مـن شـدة الأسَى   علـى خَـدّه نَظْـمٌ وفى نـحره نَـثْـرُ

وعُـدْتُ وقلبى فى سجـافِ غبيطِهِ   ولى لفـتاتٌ نـحـو هَـوْدجِـه كُثْـرُ

وذلك بعد أن قال :

يُذكّرنى نجـدًا حبيبٌ بأرضهـا   فَيَا صَاحِبَىّ نجواىَ هل ينفعُ الذِّكْرُ ؟

تَطَـاوَلَتِ الكُثْبَانُ بينـى وبينـه   وبَـاعَـد فيها بيننـا البـلدُ الـقَفْرُ

عدانـى عنــه ذَوْدُ أعـداء منهلٍ   كـثيـرٍ إلى وُرَّادِه النـظرُ الشـــزْرُ

فماذا يَرى القارىء فى هذه الأبيات ؟ ماذا يَرى فى قول أبى فراس : (أما اخضرّ من بطنان مكة ما ذَوَى) ؟ وماذا يرى فى تساؤله : (أَمَا أَعْشَبَ الوادِى أما أَنْبَتَ الصخرُ) ؟ هل تأتى هذه الصور الفاتنة إلاّ عن هيام شديد بهذه التى انتقضت البطحاء الجرداء روضة يانعة حين مرت عليها ، وهذه التى أورق الصخر زهرًا غَضًّا ، ونباتًا فينانًا حين خطرت به ؟! إن أكثر ما فى الديوان من غَزَل رقيق يتجه وجهةَ ابنة العم الحسناء ، وهى التى عناها بقوله :

فـلاَ تنكِرينى يـابْنَةَ الـعـم إنـه   ليعرف مـن أنكرتـه البدوُ والحضْرُ [1]

وما كان للأحْزانِ لولاكِ مسلكٌ   إلى القلبِ ، لكن الهوى للبلَى جسْرُ

وتهلكُ بين الهَزْلِ والجد مُهجةٌ   إذا مـا عـداها البَيْنُ عذَّبها الهجـرُ

كـأنى أُنادِى دونَ ميثـاءَ ظبيـةً   علـى شـرف ظَمْيَـاء جَلَّلَها الذُّعْـرُ

(١) الديوان : ص ١٥٩ .

فأيقنتُ أن لا عـزَّ بعدِى لعاشقٍ   وأن يـدى مِمَّـا علِقْتُ بـه صُفْـرُ

على أن الشاعر كاد يُصَرِّحُ تصريحًا بابنة عمّه ، حين قال ما قال تحت عنوان : (يا زائر الموصل) ، وابنة عمّه لدى أبيها فى الموصل ، فهى المقصودة إذًا بالقصيدة(١) :

سـلامٌ رائـحٌ غـادِ   على سـاكـنةِ الـوادِى

على مَن حُبُّها الهادِى   إذا مـا زُرْتُ والحـادِى

ألا يـا ربَّـةَ الحَلْـيِ   على العاتـقِ والهـادِى

لقـد أبْهَجْتِ أعدائى   وقَدْ أَشْمَـتِّ حُسَّـادِى

بِسُقْـمٍ ما لَـه شـافٍ   وأَسْرٍ مـا لـه فَـادِى

فما أنْفَـكُّ عـن ذكـرا   كِ فى نَـوْمٍ وتَسْهـادِ

هذا ما أرجّحه فيمن شغلت قلب الشاعر ، والكلمة الأخيرة فى مثل هذه المسائل المشتبهة لم تُقَلْ بعد ، فقد يأتى الغد بأنباء فى بعض المخطوطات التى لم تُنشر إلى الآن ، تؤيد هذا الرأى أو تعْصف به ، وحسبُ الباحث أن يستقيمَ سبيله فى البحث على نهج معقول .

ولنترِكْ هذه الحبيبة إلى بعض العواطف التى أثارتْها فى نفسِ أبى فراس ، لنذكر أن هذه العواطف ذاتُ اتجاهين متعارضين ، ففيها ما يدل على الشموخ المترفع ، وفيها ما يدل على التذلُّل المنهار ، ولا تَعارُضَ لدى العاشق بين الاتجاهينِ ، لأنّه يخضع لتيّارات متضاربة تتماوج فى صدره كما يموج الماء فى اللجج العاصفة ، فهو حينًا يتذكر كرامته فيشمخ ويستعلى ، وحينًا آخر يُدرك حاجته الماسة إلى لقاء حبيبته وقد قامت دونها السدود

(١) الديوان : ص ٩٢ .

النفسية والمادية ، فلا يملك غير أن يخضع ويستكن . ومن أمثلة هذا الخضوع الضارع ما نراه فى هذه الشواهد [1] :

أساءَ فزادتْـه الإسـاءةُ حُظْوَةً ... حبيبٌ على ما كان منه حبيبُ

يعـدُّ علـيَّ العاذلُـون ذُنوبَـه ... ومِن أين للوجه المليحِ ذُنوبُ

فيا أيها الجافِى ونسألُه الرِّضَـا ... ويا أيها الجانِى ونحـن نتـوبُ

وقوله [2] :

مُسـىءٌ محسنٌ طـورًا وطـورًا ... مـا أدرى عَدُوِّى مـن حبيبى

وبعضُ الظالمـين وإنْ تجنَّـى ... شهىُّ الظُّلمِ مغفـورُ الذنوبِ

وقوله [3] :

لم أُؤاخِـذْك بالجفـاءِ لأنـى ... واثقٌ منك بالوفـاءِ الصحيحِ

فجميـل العـدوّ غـيرُ جميـلٍ ... وقبيحُ الصديـقِ غـيرُ قبيـحِ

وقوله [4] :

أقـرُّ لـه بالذَّنْبِ والـذنبُ ذنبـهُ ... ويزعُـم أنـى ظـالمٌ فأتـوبُ

ويقصدُنـى بالهجـر علمًا بأنـه ... إلىَّ علـى مـا كانَ منه حـبيبُ

ومن كل دمعٍ فى جفونى سحابةٌ ... ومن كل وجدٍ فى حشائى لَهيبُ

(١) الديوان : ص ٤٤ .

(٢) الديوان : ص ٤١ .

(٣) الديوان : ص ٧٠ .

(٤) الديوان : ص ٥٥ .

أما أمثلة الشموخ والاستعلاء فتظهر فى مثل قوله :

الآن حين عرفتُ رُشْدِى ... واغتديْتُ على حَذَرْ[1]

ونهيتُ نفسى فانتهتْ ... وزجرتُ قلبى فانْزَجَرْ

ولقد أقام على الضلا ... لَةِ ثم أذْعَن وَاستَمَرْ

هيهات لستُ أبا فِرا ... سٍ إنْ وفَيْتُ لمن غدَرْ

وقوله[2] :

ومُغضٍ للمهابةِ عن جوابِى ... وإن لسانَهُ العَضْبُ الصقيلُ

أَطَلْتُ عتابَه عنتًا وظُلْمًا ... فَجَمْجَمَ ثم قال : كما تَقُولُ

وقوله[3] :

وفى كِلَّتَىْ ذاكَ الخِباءِ فريدةٌ ... لها من طِعَانِ الدَّارِعِينَ ستائرُ

تقول إذا ما جئتُها مُتَدَرِّعًا ... أزائرُ شَوْقٍ أَنْتَ أم أنت ثائِرُ ؟

وفى هذه القصيدة بيت بديوان كامل هو قول أبى فراس[4] :

ويا عِفَّتِى مالى ومالكِ كُلَّمَا ... هَمَمْتُ بأمرٍ هَمَّ لى منكِ زاجِرُ

فهذا البيت يجعل قائله امتدادًا للعُذريين الذين سعد بهم الشعر العربى فى العصر الأموى ، فكانوا مثال الطُّهر والعفاف ، وكتبوا فى صفحات الحب أعطر الصفحات ، وأشرقها بالضياء ! وفى أبى فراس روح جميل بن معمر بسالةً وحَمِيَّةً ، حتى ليجوز أن يقول ما قال جميل :

---

(١) الديوان : ص ١٢٣ .

(٢) الديوان : ص ٢٣١ .

(٣) ، (٤) الديوان : ص ١٠٢ ، ١٠٣

فلـيت رجالاً فيك قد نذرُوا دَمى وَهَمُّـــوا بقتْلــى يا بُثَيْنُ لَقُونِـــى

إذا أبـصرُونى طالعًــا مـن ثَنِيَّــةٍ يقولون : مَنْ هذا ؟ وقد عرفونى !

وقد جرى كثير من الباحثين على أن يعدوا الغزل الذى تصدر به قصائد الفخر والمديح غزلاً تقليديًّا لا يصور عاطفة صادقة ، وإنما هو تمهيد جرت به العادة فى العصر الجاهلى ، فاقتفاهُ الشعراء من بعدهم . وقد يكون ذلك صحيحًا لدى بعض المادحين ممن لم يُكابدوا حرارة العشق ، أو كابدوها فى أيام الصبا على نحو سهل لم يُتح له أن يتغلغل فى أعماق أرواحهم ، أمَّا الّذين اكتووْا بنار الصبابة وعانوا آلامها المبرحة ، فأشعارهم الغزلية فى مقدمة القصائد وليدة تجربة صادقة ترتفع بهم إلى درجة العُذريين من ذوى الألم المبرح ! وأعرف من هذين شاعرين كبيرين هما : الشريفُ الرضى ، وأبو فراس الحمدانى . . وكلاهما ذو شأن رفيع فى قومه حسبًا ونسبًا وأدبًا ، فكان كلاهما يصور عن نفس حَسَّاسة تأبى التبذل فى الغزل محافظة على عنصرها الرفيع ، وأنت تقرأ ما كتباه فى مطالع القصائد فلا تفرق فى كثير منها بين هذه المطالع ، وما قَالاهُ فى الغزل الخاص غير المتصل بموضوع آخر ، وأذكر أنى أقرأُ غَزَل هَذيْن الشاعرين فى المقدمات فيَحُولُ بينى وبيْن ما تلاه من المدائح ، لأنّ نَبْرتَه العالية تكاد تقطعُ الصلة بينه وبين ما تلاه ، ومن هذا قول الشريف فى مطلع بعض قصائده (١) :

وحُلُـولِ مــا قِـرى نــا زلهـــم إلاّ الغـــرامُ

بدّلـــوا الــــدار فـلـما نزلُـوا القلـب أقامُوا

يا غـزالَ الجـزع لـو كــا ن عـلى الجـــزع لمـامُ

أحْسُدُ الطّوق على جيـــ ـدك والطـوق لــزامُ

(١) ديوان الشريف : ص٢٣٠ .

أنــا عَرّضــتُ فــؤادى   أول الحـــب كــلام

وقول أبى فراس الحمدانى [1] :

أَرامِيتى كـلُّ السهـامِ مُصيبـةٌ   وأنـتِ لىَ الرّامِـى فَكُلِّى مَقَاتـلُ

وإنِّـى لِمقـدامٌ وعنـدك هــائبٌ   وفى الْحَىِّ سُحْبَانٌ وعندكِ باقلُ

يَضلُّ عَلَىّ القولُ إنْ زرتُ دَارَها   وَيَغْربُ عنى وَجْهُ ما أَنَا فاعِـلُ

وحُجّتها العليا عـلى كُلِّ حالـةٍ   فَبَاطِلُهَا حـقٌّ ، وحَقِّىَ بَاطِـلُ

وقَائـعُ قَتْلَى الحـبِّ فيهـا كثـيرةٌ   ولم يُشْهـَدْ سيـف ولا هُزَّ ذَابِـلُ

فمثل هذه الخطوات فى قصائد المديح والفخر لا تعد تمهيدًا صناعيًا ، وإنما هى تصوير للواعجَ دفينة ، تقدّم بها الشاعر فى مطلع قصيدته ، وكأنه يُمَوِّهُ على الناس بغزله حين يظنّونه غزلاً تمهيديًا فحسب . والذين أكثروا من القول فى المقدمة الطَّلَلِيَّة ، وعَدُّوا البكاء على الأطلال عُنْصُرًا مستقلاً بذاته لصدق حرارته ، وقوة تأثيره ، عليهم أنْ يُفسحوا القول للمقدمة الغزلية ، فهى فى صميمها باعثةُ القول فى الأطلال . وما هو الطلل ؟ هو مكان الحبيبة الراحلة ، وأثرها الشاهد بعد الوجه الغائب .

(١) الديوان : ص ٢١٦

أخبارُ أبى فراس الشخصية قليلةٌ بالنسبة لشعراء عصره، كأبى الطيب، وأبى العلاء، والشريف الرضى . . وأكثر مَن تحدثَ عنه من الأقْدَمين هو أبو منصور الثعالبى، ولكنَّه لم يسلك - كعادته - مسلك المؤرخ الذى يسجل الوقائعِ، ويَسرد الأحداث على نحوٍ يجعل المتحدَّث عنه واضح الملامح، بَارِزَ الصورة، بل أفرطَ فى الثناء فى جُمَلٍ مسموعة تدل على الإعجاب، ولكنّها لا تتحدثُ عن بواعث الإعجاب . ثم شفَع ذلك بمختارات وافية من شعره فى جميع الأغراض التى قال فيها أبو فراس، وديوان الشاعر يُغنى عن هذه المختارات، لأنه جمع أكثر ما قال، وقد رواه أستاذه ابن خالويه، فحرص على أن يستقصى كل ما قال .

وإذن فليسَ لدينا من أخبار الشاعر ما يُسعفنا بإظهار حياته على النحو المبسوط الممتد، وإنّما نتّجه فى إبراز هذه الحياة إلى ديوانه، لأنّ أبا فراس لم يكْتُم شيئًا من مشاعره، بل كان يجد راحة تامة فى الإفصاح عن شتى الخوالج، بلْ عَنْ أدقّها وَأَدْعاها إلى الاستنكار حذرًا من الشبهات، وما زال الشعرَ رافدًا من روافد الحديث عن شخصية قائله، إذًا كان الدَّارس واعيًا مدركًا لما يستتر تحتَ الألفاظِ من مرامٍ لا يستشفها القارىءُ العابر، وقد قرأتُ الديوان باعتبارِه المصدر الأول لحياةِ الشاعر، فماذا وجدت ؟

وجدتُ شَبهًا قريبًا بين المتنبى وأبى فراس فى مَطامحهما البعيدة المترامية التى أزعجتْ حيَاتيْهما ، وأحالتْهما إلى صَابٍ مرير . . فكِلا الشاعِريْن قد مُتِّعَ بالشهرة والجاه ورفاهية العيش فى فترات كثيرة من حياتهما ، ولوِ اكْتفيا بما نالاه من الرَّغَدِ الهنىء فى ظلال سيف الدولة ، لَعاشَا فى غبطة هانئة ، وسعادةٍ لا تتكدر بدوافعِ الحاجة ، ومطالبِ الأيام ، ولكنهما رغبا فى الرّياسة والإمارة ، وعدَّا كُلَّ ما يحوطهما من النعيم ـ مهما عَظم مقداره ، واتّسع رواقه ـ شيئًا صغيرًا بالنسبة إلى ما يَرجوان من الإمارة التّامَّة ، والسلطان العريض ، وذلك ما تنطق به أشعارهما التى لم تكن فلتةً من الفلتات فى ساعة عابرة ، بل كانَتْ ألحانًا متكررة تتردد فى أكثر القصائد ، مما يدلُّ على تأصّلها فى النفس ، بل مما يدل على أن هذه الرغبات الطالحة كانَتْ مصدرَ ألمٍ مكدر ينغّص العيش ، ويمزج المرارة فى الزلال الهنىء .

يقول المتنبى :

يقولـــونَ لى مــا أنـــتَ فى كـــلِّ بلـــدةٍ

وما تبتغى ؟ ما أبتغى جُلَّ أن يُسَمَّى [1]

ويقول :

ذر النفسَ تأخذْ وسعَها قبل بَيْنِها	فمفتَــرِقٌ جــاران دارُهُمــا العُمــر [2]
ولا تحسبنَّ المجـد زِقًّـا وقينـة	فما المجدُ إلاّ السيـفُ والفتكةُ البكرُ
وتَضريب أعناق الملوكِ وأن تُرى	لكَ الهبواتُ السُّود ، والعسكرُ المجرُ
وتركُـكَ فى الدنيـا دَوِيًا كـأنما	تـداول سمـعَ المرء أنْمُلُــه العشرُ

(١) ديوان المتنبى : جـ ٤ ، ص ٢٣٣ .

(٢) ديوان المتنبى : جـ ٢ ، ص ٣٥٣

هذا بعضُ ما أقلق المتنبى وأزعجه ، وهو الطموحُ الكاذب الذى يمتدُّ بالآمال إلى مَا لاَ سبيل إلى تحقيقه . وقد شاركه أبو فراس هذا الطموح ، ولكنّه كان أقربَ إلى ما يريد من المتنبى ، فأبو فراس أميرٌ من أمراء آل حمدان، وأبوه صاحب الموصل ، ورجل الدولة الذى دَافَعَ عن الخليفَة العباسى وحَماه بطش الأعداء ، وليس بأقل من عمه سيف الدولة ، وأمراءُ بنى حمدان مِن معاصريه ليسوا فى مكانته بين الناس، فهو ـ باستثناءِ سيفِ الدولة صاحبِ الأمْرِ والنّهْى فى البلاد ـ أشْهرُهم صيتًا ، وأعْلاهم مكانةً بين الناس ، ولشعره ذيوعٌ يتردد على الألسنة ، وهو شعرٌ يدل على العظمة والكبرياء فيما ينتخبه من فخر ، وربّما وَجد مِن حوله ـ وبخاصة والدته ـ من أكثروا من الحديث عن مواهبه ، ومن ذكّروه بمجد أبيه سَعيد بن حمدان، وأنّه كان صاحب الموصل ، ولَولا الغدر الشنيع لكان ولَدُه الآن ملكها المنتظر !

كلّ هذه المعانى تجعل أبَا فراس صاحبَ حُلم فى الإمارة الكبرى يُراوحه ويُغاديه ، وقد يجد من بنى عمّه من يَعلم خبيئتَه ، فيُحاول أن يتهكم به ، ومِن مصائب آل حمدان أن بَأْسهم بينهم شديد ، وأنّهم أقربُ إلى العداء منهم إلى الصداقة ،وهذا ما لمسه أبو فراس وعرفَه تمام المعرفة ، فضج بالشكوى المريرة : شكوى من الدهر ، وشكوى من الأقارب فى الأسرة الواحدة، وشكوى من الأصدقاء الذين يظهرون غير ما يبطنون . . وأبو فراس يلمس فى أحدهم صِدق اللهجة ظاهريًا ، فيعتده صديقًا يعتمد عليه، ثم تفجؤه الأيام بغدْرِه ، فيجهر بالشكوى ، وهى الغرض الأصيل الذى تلوح أساريره فى لوحات شعره . ثم جاءَت مِحْنَةُ الأسْر ـ ولها فصلٌ مستقل ـ فارتفعتْ بالشكوى من الهمس أو المحادثة، إلى الصراخ الهاتف والنواح المستطيل !

إن شعور أبى فراس نحو أقاربه كانَ فى أكثر قصائده يشتعل بالحَسْرَة ، وكأنَّ أبياتها جَمْرٌ يلتهب . وأقول فى أكثر قصائده ، لأنّ اثنيْن أو ثلاثة من بنى عمه قد صادَقوه الودّ ، ولم يحاولوا إساءته ، وهم بعد أمراء خَليُّو البال من المطامع ، فسارتْ حَياتهم مسيرًا هادئًا لم تُزعجها العواصف النفسيّة التى تناوحت من كل مكان فأزعجت خاطر أبى فراس ! ولو سَلكَ الشاعر مسلكهم لارتاحَ من عناء طويل كادَ يغصّه بالماء الفرات . ونَدع هؤلاء المسالمين إلى غيرهم مِمَّن نابذوه العداء؛ لنستمع إلى بعض ما قال مُصَوِّرًا لواعج نفسه الناقمة :

أرانــى وقَــومــى فرَّقَتْنــا مذاهــبُ ... وإن جَمَعَتْنَـا فى الأُصُـولِ المناسِبُ (١)

فَأَقْصَاهُمُــو أقصاهمُو مِـنْ مساءَتـى ... وأقربُـهم ممــا كرهــتُ الأقـــاربُ

غريبٌ وأهـلى حيثُ ما كان نَاظِرى ... وحيدٌ وحـولى مـن رِجَالى عصائـبُ

نَسِـيُّكَ مــن ناسَبْتَ بالـوُدِّ قلــبَهُ ... وَجارُكَ من صَافَيْتَ لا مَن تُصاقِبُ

وشَـرُّ عَدُوَّيْـكَ الــذى لا تُحــارِبُ ... وَخَــيْرُ خَلِيلَيْكَ الــذى لا تُناسِبُ

ومَـا أُنْسُ دَارٍ ليــــس فيهـا مـؤانسٌ ... وما قُرْبُ دارٍ ليـس فيهـا مُقارِبُ ؟

فالشاعر يعترفُ فى حسرةٍ أنه فى وادٍ وأقاربَه فى وادٍ آخر ، وإنْ جمعتْهم أُسْرَةٌ واحدة ، وَأَنَّ أقرب الأقرباء هو أكثرهم إساءة إليه ، وأبعدُ الأقرباء هو أقلهم فى هذا المجال ، ولذلك فهو يعيشُ غريبًا بين أسرته ، وكلهم ذَوُو رَحِمِه دُون أن يستشعر منهم لمسةَ حنان أو مَوَدَّة ! فكيف يكونون ـ مع ذلك ـ أقاربَه ، والقريبُ الحقيقى من جازاكَ بالودِّ ودًّا مهما بَعُد نَسبه من نسبك ، والجارُ الأصيل من يصافيك لا مَن يجاورك فى السكنى !و مِن أفجع الفواجع

(١) الديوان : ص٢٣ .

عدوُّك الذى لا تَستطيع حربه ، لأنَّ دمَه دمُك ، ورحِمَه رحمك . . ومع ذلك يلقاك بالعداء ، وتمنعك الأرحام الواشجة أن تتّخذه عَدُوًّا صريحًا ! لذلك كان المقام مقامَ وحشة فى دارٍ ليس بها أنيس !

هذه صرخة أليمة ، وأوجع منها وأفجع ما صرخ به الشاعر حين بلغه أن بنى قومه يكرهونه ، ويتمنون أن يفقدوه ! أىّ شعور ممض يتملك الإنسان حين يعرف معرفةَ اليقين أن أقربَ أقربائه يتمنى هلاكه ! أقربُ أقربائه الذى يلمسُ دِفاعه عن مجد أسرته ومواقفه الشريفة فى ميادين البطولة؛ يحمل له كل البغضاء ، ويتمنّى أن يأتيه الموت فيستريح من وجوده ، وكأنه شرٌّ حازب وبلاءٌ مخيف ! إن الشاعر قد ابتلع أقصى مرارات العَلْقم فى حلقه حين صرخ بهذه الأبيات(١) :

تَـمَنَّيْتُمُو أن تفقــدونـى وإنّمـا ... تمنيتُمــو أنْ تفقدُوا العِـزَّ أَصْيدَا

أَمَـا أَنَـا أعلــى مــن تعدُّون هِمَّةً ... وإنْ كنتُ أَدْنَى من تعدّون مولدَا؟

إلى الله أشكُو عُصْبةً من عشيرتِى ... يُسيئُون لى فى القول غَيْبًا ومَشْهَدَا

وإنْ حاوَلُوا كنتُ المجنَّ أَمَامَهـم ... وإنْ ضَارَبُــوا كـنتُ المهنَّد واليدَا

وإنْ نـابَ خَطْبٌ أو ألمـتْ مُلِمَّةٌ ... جعلتُ لهم نفسى وما ملكتْ فِدَا

يَـوَدُّون ألاَّ يُبصـرونـى سَفاهــةً ... ولو غِبْتُ عن أمـرٍ تركتهمُ سُدَى

مَعالٍ لهـم لـو أنصفـوا فى جمالهـا ... وحظٌّ لنفسى اليوم وهو لهم غَـدَا

فـلا تَعِدُونِـى نِعْمَةً فــإذَا غدتْ ... فأَهْلى بها أَوْلَى، وإنْ أصبحوا عِدَا

وأعتقد أن أبَا فراس بهذه القطعة قد زادَ النارَ لهيبًا بينه وبين من يناوِئُه من بنى عمه ، إذ يعترفُ فى وجوههم أنه أعلَى منهم همّة وإنْ كان صغير السن

(١) الديوان : ص ٩٠ .

بالنسبة إلى شيوخهم ، وأنّه هو المِجنّ الذى يَحْتمونَ به فى ساعَة الكريهة فيقيهم شرَّ الأعداء ، حيث هو المهنّد الباتر، واليد المهاجمة ، وأنّ أمجاده التى يسوقها إلى بلده هى أمجادهم ، تَئُولُ إليهم فيجنون ثمارها !

هذه كلها تصريحاتٌ لا تنزل بردًا وسلامًا على قلب القريب الحاسد، وإنما تزيده لهبًا واشتعالاً ، والشاعر لا يعنيه أن يشتعل الحاسد ضرامًا قدر ما يعنيه أن يُنفّس عن خاطره بعضَ ما يجده مِنْ تباريح الألم المضَاض ، وهو بعد ليسَ رجلَ كياسةٍ يُدارى ويُداهن ، ولكنّه شاعر صريح ، تزدحم المعانى فى صدره فيهتف بها ولا يُبالى أين وقعت !

والشكوى لدى أبى فراس لم تقتصر على ذوى قرباه وحدهم ، بل امتدت إلى نفرٍ من أصدقائه، وهذا هو المتوقع . . لاَ لأنّ أبا فراس ممن لا يرعون مكانة الصديق ، بلْ لما تأصل فى نفسه من الكبرياء التى جعلته يعْتز بأسرته اعتزازًا قد يفيض فى أسبابه مع أصحابه فى مجالس الأُنس . فلا يجد من الاستجابة الشافية ما يُرضى كبرياءه ، وأصحابُ التجارب النفسية يَنأون بأنفسهم عن التباهى بالحَسَبِ والأصالة مهما كان ذلك حقيقيًا ، لأنهم يعلمون أن أثقل الكلمات كلمة (أنا) حين تظهر فى معرض التعاظم . . لذلك أخذ الكثيرون ينصرفون عن مجلسه ، ولم يفطنْ إلى سبب ذلك ، فهو هو بينه وبين نفسه لم يُسىء إلى أحد ، وهذا فى الظاهر فقط ، أمَّا فى الباطن فقد أساءَ إلى أصدقائه حين أكثر علَيهم من أحاديث الحسَب والجاه ، وكأنّه بلسان الحال يقُول لهم: لَسْتُم نُظرائى ! وهَذا ما لا يتحمله الصديق ، لذلك نَفَرَ الأصحاب من مجلسه ، ولم يجدْ فيهم على توالى الأيام صاحبًا وفيًّا

يرعى حقوق المودَّة فيستمع إليه دون نفور . وهذا ما عبر عنه أبو فراس بقوله متبرمًا شاكيًا [(١)]:

ولمّا تخيّرتُ الأخلاّءَ لم أجدْ صبورًا على حفظ المَودَّةِ والعهدِ
سليمًا على طَيِّ الزمانِ ونشرهِ أمينًا على النجوى صحيحًا على البُعدِ
ولما أساءَ الظنَّ بى مَنْ جَعلتُه وإيَّاىَ مثل الكفّ نِيطَتْ إلى الزندِ
حَمَلْتُ على ضَنّى به سُوءَ ظنِّهِ وأيقنتُ أنى بالوفا أُمَّةٌ وَحْدى
وأنّى على الحالين بِالْعُتْب والرضى مُقيمٌ على ما كان يُعرفُ من وُدِّى

وهو شعور جميل من الشاعر ، حيث لم يُجازِ القطيعة بقطيعة مُماثلة ، وإنما مَال إلى الوفاء فرَعَى حقوق الودِّ ، وكأنّه لم يدرس نفوسَ أصحابه فيعدّل من نهجه الاعتزازى ، بل جعل يؤاخذُهم على القطيعة المنتظرة ويعجب من حدوثها ، ويقول فى ذلك [(٢)]:

لا أشترى بعدَ التّجَرُّب صاحبًا إلاَّ وَددتُ بأنّنى لم أشْرِهِ
مِنْ كُلِّ غدّارٍ يُقرُّ بذنبهِ فيكون أعظم ذَنْبِهِ فى عُذْرِهِ
ويجىء طَوْرًا ضرُّهُ فى نفعه جهلاً ، وطَوْرًا نفعهُ فى ضُرِّهِ
فصبرتُ لم أقطعْ حِبالَ ودادِه وسترتُ عنه ما استطعتُ بسترِهِ
والمرء ليس ببالغٍ فى أرْضِه كالصَّقرِ ليس بصائدٍ فى وَكْرِهِ
أَلْقَى الفَتَى فأُريدُ فائضَ بِشْرِهِ وأجلُّ أنْ أَرْضَى بفائضِ بِرِّهِ
يَارُبَّ مُضطغنِ الفؤادِ لقيتُه بطلاقةٍ فسلَلْتُ ما فى صَدْرِهِ

(١) الديوان : ص ٩٥ .
(٢) الديوان : ص ١٤٢ .

والبيت الأخير يدلّ على أن أبا فراس قد أفاد من بعض ما قَاسى من تجارب القطيعة بين الأصدقاء ، فقد نَزل على حكم الجماعة حين أعلن أنه يلقى الحاسد المضطغن بالبِشْر والطَّلاقة ليستلَّ كامِنَ حقده ، ولعلّ ذلك كان من أواخر تجاربه حينَ شاهد من تقلبات الزمن ما دفعه إلى أن يُدارى ويُداهن مخافَةَ أن يبقى بلا صديق ! ولو سلَكَ هذا المسلك منذُ شَبَّ شبابه لكان له من أصدقائه ذخيرة وافية ، وعَوْنٌ على احتمال المصاعب والأرزاء .

ومهما كان من شىء ، فقد صقلت التجارب شاعرنا الكبير فى أُخريات عمره القصير ، فاهتدى إلى مُهادَنة تريحه ، ورسم الطريق لمن يريد أن يجتاز طريق المودة ، فحثّه على المهادنة والملاينة ، وألاَّ يرمى بنفسه رميًا على الأصدقاء والأحباب ، بل يتمسك بقول القائل (زُرْ غبًّا تزدد حُبًّا» ، وهذا ما أجمله الشاعر فى قوله[1] :

لا تَطْلبـنّ دُنُـوَّ دارٍ   مـن حبيبٍ أو معاشِرْ
أَبْقَى لأسبـاب المودَّةِ   أَنْ تَـزورَ ولا تُجـاوِرْ

وبعد أن كان الشاعر راغبًا فى الثراء ، طامعًا فى كثرة الخدم والأتباع ، أسلَمه اليأس إلى استسلام عاقل ، وهو استسلامٌ أتاح له كثيرًا من الهدوء النفسى ، لأن ثورة الأطماع لا تُتيح لصاحبها مقرًّا يسكن إليه . وهنا قَلَّتْ شكواه نسبيًّا ، واستسلم إلى واقع أخذ يُفلسفُهُ فلسفة المضطر ، لا فلسفة المختار ، ويتجلى ذلك فى قوله[2] :

تَعِسَ الحريصُ وقلَّ ما يأتى به   عِوضًا عن الإلحـاحِ والإلْحافِ

(١) الديوان : ص ١٦٤ .

(٢) الديوان : ص ١٩١ .

إنَّ الغَنِـيَّ هـو الغنـيُّ بنفسـه ولو انّه عارِى المناكب حـافِ

ما كـلُّ ما فـوق البسـيطة كافيًا فَإذا قَنِعْتَ فـكلُّ شىءٍ كـافِ

ما كـثرةُ الخيْـل الجيـادِ بزائـدِى شـرفًا ولا عَدَدُ السَّوامِ الضـافِى

وتَعَافُ لى طمـعَ الحريصِ أُبُوَّتِي ومُروءَتـى وقَنـاعَتِى وعفافـى !

وهذه الأبيات جديرة أن تكون دستورًا يُحْتَذَى ، لتريح من عناء الأطماع ، وتفلُّ من غرب التطلُّعات .

أَفْرطَتْ كُتب الأدب فى الثناء على سيف الدولة ، فهو واسطة قلادة بنى حمدان ، كما يقول الثعالبى ، وهو سدَّاد الثغور ، وغَزواته تُدرك الثأر من طاغية الروم ، وحَضْرَتُه مقصد الوفود ، وموسم الأدباء ، ولم يجتمع قط بباب أحدٍ من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر [1] . وأقوى من ذلك كله قصائدُ المتنبى فى السيفيّات ، فقد خلدتْه فى سجلّ التاريخ تخليدًا لم يَنَلْهُ كثير من القائمين العظام ، فالسلطان محمود الغزنوى ـ الذى أعاد فتح الهند ، وأهدى للإسلام مائة مليون نسمة لا يزال أحفادهم اليوم يملئون باكستان وبنجلاديش وكشمير وكثيرًا من ربوع الهند ـ لا يعرفه غير المتخصصين فى دراسة الفتوح . أمّا سيف الدولة فيعرفه طُلاب المدارس ، لأنهم يدرسون شعر المتنبى . وأَما كُتب التاريخ فقد صَدقت الحديث عنهُ حين عَدَّدَتْ حسناتِه وسيئاته معًا ، ومن أصدق ما قرأتُه فى ذلك ما كتبه الأستاذ الكبير محمد كرد على فى الجزء الأول من خُطط الشام [2] حيث قال : إنه غَزَا الروم أربعين غزوةً له وعليه ، فحفظ بغزواته بيضة العرب والإسلام ، ولولاهُ ـ بعد ضعْف العباسيين ـ لتقدّم الروم فى بلاد الشام ، ورُبما استصْفُوها كلها ، وكانَ مُعجبًا برأيه ، محبًّا للفخر والبذخ ، مُفرطًا فى

(١) يتيمة الدهر : جـ١ ، ص١٦ .

(٢) خطط الشام : جـ١ ، ص٢٢٢ .

السخاء والكرم ، سعيدًا ، مُظَفَّرًا فى حروبه ، جائرًا على رعيته . اشتدَّ بكاء الناس عليه ومنه . وإذن فقد كانَ الرجل جائرًا على رعيته ، قد يُخَرِّب قريةً بأكملها ليجيز شاعرًا مدحه بقصيدة [1]. ولما تربّع فى دست حلب استكثر من القصور لَه ولآله وقُوَّادِهِ ، وقد استحل فى ذلك مصادرة أموال رعيته . فكانَ قاضيه أبو الحصين يقول : من هَلَكَ، فلسيف الدولة ما ملك . . !

هذا هو سيفُ الدولة عند الأدباء والمؤرخين ، وأميرٌ هذه نفسيته الطامحة المعتزّة يحرص كل الحرص على أن يكون الرأسَ فى دولته ، كما يحرِصُ على أن يرثَ أولاده من بعده مجدَه ، فهم وحدهم معقد آماله ، ومناطُ رجائه ، ويحب أن يكونوا فى حياته أعلامًا مرموقين ، لا يُباريهم مناوىء ، ولا يقفُ فى طريقهم مُنافس ، وهو يدور بعيْنه بِلَحْظِ الصقر الثاقب فيمن حوله ، ليعرف مَنْ تُحدثه نفسه بنباهة الذكر بَعده من أبناء عمومته ، فيجدُ أبا فراس أوسعَ هؤلاء هِمَّةً ، وأرقاهُم أدبًا ، وأشدهم فخرًا واعتدادًا بنفسه ، ولكنّه لا يستطيع أن يأخذه بشىء واقعى تنم عليه الدلائلُ الصريحة ، وإحساسه الداخلى يؤرقه ويُضْنيه ، وإذْ ذاكَ لابدّ أن تكثُر الغيوم تارة ، وتتبدَّدَ تارة أخرى ، ولكنّها لا تنقطع نهائيًا ، وعلَى سيف الدولة أنْ يرعى شُئون الغد فى بنيه رعايةَ من يحسّ ويفكر . . ومن يَعزم على شىء ، فلابد أن يمهد له السبيل .

هذا هو سيف الدولة ؛ فمن أبو فراس؟

إنَّ مَنْ تحدثوا عن الرَّجُلَين معًا ، لم يحسُموا الأمر على وَجْه صريح لا يحتمل اللَّبْسَ ، وكثيرٌ من مواقف التاريخ لم تكد تحسم إلاَّ بتحليلٍ شخصىّ منْ مؤرّخ نابه ، حيث يجتهد فى تَتَبُّع خطٍّ واضح فى النسيج الممتدّ؛ مُحاولاً

(١) خطط الشام : جـ١، ص٢٢٢.

أن يصل به إلى حَسْمٍ دقيق . ومن هذه الخطوط المتشابهة فى سيرتى الرجلين، ما نقرؤه من أن سيف الدولة كان يخصُّ أبا فراس برعايته ، ويحضره مجالس الأُنس والطرب ، ويستمع إلى مدائحه فى إعجاب ، ويُطارحه الشعر، ويدعوهُ إلى إجازة بعض ما يقول . نقرأ ذلك كله؛ ثم نقرأ بإزائه أنه كان يُجافيه، وأنه كان قادرًا على افتدائه حين أُسِرَ فى بلاد الروم أعوامًا طوالاً ولم يُحاول أن يفعل ذلك ، وأنّ الأُمَّ الحزينة خَرَّتْ على قدمه باكيةً ترجوه أن يُسْعِفَ ولدها الأسير بالفداء؛ فما استجاب لها فى شىء ، بل ما وَعَدَهَا وَعْدًا يُطمئن خاطرها فترجعَ مرتاحة الخاطر قليلاً من الوقت ! وأكبر مِنْ هذا أن يرد على كَلامه الذى بعث به مُستعطفًا ببعض الاستهزاء السَّاخِر ، وكأنّه يقول له : ستظلُّ فى مكانك هذا ! . . فما تفسير هذا التضارب فى السلوك بين الحظوة والاحتفال ، والإهمال والنفور؟

ولكى أؤكد ما ذكرته من تضارب الأنباء فى سرد العلاقة بن سيف الدولة وأبى فراس، فإنى أنقل ما ذكره الثعالبى فى مقدمة حديثه عن أبى فراس ، حيث قال [1] : « وكانَ سيف الدولة يُعجب جدًّا بمحاسن أبى فراس ، ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ، ويصطنعه لنفسه ، ويصحبه فى غزواته، ويستخلفُه على أعماله . . وأبو فراس ينثر الدرَّ الثمين فى مكاتباته إياه ، ويُوفيه حَقَّ سُؤدده ، ويَجمع بين أدبى السيف والقلم فى خدمته » . هذا ما قاله الثعالبى ، والثعالبى نفسه هو الذى ذكر أن كثيرًا من توسلاته لابن عمه فى الأَسْر لم تُجْدِهِ شيئًا ، وأنّه رَدَّ أُمَّه الحزينة دون وَعْدٍ شافٍ ، وأنّ سيف الدولة تهكّم به حين قال مخاطبًا إيَّاه : « إنّ مفاداتى إذا تعذَّرَتْ عليكَ ،

(١) اليتيمة : جـ١ ، ص ٣٥ .

فَأْذَنْ لى فى مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليُفادونى وينوبوا عنك فى أمرى»، فقد ردَّ عليه سيف الدولة: «ومَن يعرفك فى خراسان ؟» متهكمًا مستخفًّا . فأجابَه أبو فراس بقصيدة مؤثرة قال فيها [(١)]:

وَفِيمَ يُقَرِّعُنِى بالخمولِ ... مولًى به نِلْتُ أعْلَى الرُّتَبْ

وكانَ عتيدًا لَدَىَّ الجوابُ ... وَلَكِنْ لهيبتهِ لم أُجِبْ

وَإنَّ خُراسَانَ إنْ أنْكَرتْ ... عُلاَىَ ، فقد عَرَفَتْها حَلَبْ

أَلَسْتُ وَإِيَّاكَ مِنْ أُسْرَةٍ ... وبَيْنِى وبَيْنَكَ عِرْقُ النَّسَبْ ؟ !

فما تفسير ذلك كله ؟

تفسيرهُ الذى رأيته بعد طول تَلَبُّث؛ أنّ سيف الدولة حين بالغ فى إكرام أبى فراس ، لم يَكُنْ ليتخوّف منه على أبْنائِه من بعده . . أمَّا حين لمسَ فى أقواله الصريحة ما يدل على تطلّعه للمجد ، وعَرف عن يقين أن منزلة أبى فراس فى حَلب لدى النّاس أرْقى من منزلة وَلَدَيْه ، مَهْمَا هابَهُما الناسُ من أجله ، بدأَ يَزْوَرُّ عنه ، ويتمنى لو نَأَتْ به الديار . . وكانَ من اللباقة بحيثُ لم يعلنْ ذلك صريحًا ، ولكنَّ واقع عمله يدل على ذلك ، وقد يغدر سيف الدولة بعضَ الغدر فى اتجاهه ، نظرًا لهيام الأب بمستقبل أبنائه ، وأقولُ بعضَ الغدر لا كلَّ الغدر ، لأنَّ الأشرافَ من الأصلاء حين وقَفُوا مَوقفه عَرَفوا قيمة البطولة، فَرعَوْا حقها . فمَعْنُ بن زائدة الشيبانى ـ على سبيل المثال ـ كان يُقدم ابن يزيد بن مزيد الشيبانى على أولاده ، ويعقِد له اللواء ، ويستشيره فى المهام من الأمور حتى صار رجل شيبان مِن بعده ، وقد عاتبتْه

(١) الديوان ، ص٢٩ .

زَوْجُه عتابًا مُلِحًّا على هذا السلوك غير المنتظر ، فقربَ لها المثل الواقعى بمواقف التخاذل لَدى أبنائه ، ومواقفِ الجدِّ لدَى يزيد ابن أخيه ! أفنقولُ إنّ مَعْنًا كان جائرًا على أولاده ، أم نقولُ : إنه بَطَلٌ قَدّرَ حق البطولة ، ورَعى جانب الحقيقة ، حين عرفَ أن يزيد ابن أخيه وإن لم يكُنْ من دمه ، فهو ابنُه شجاعةً وهمة وأريحية ، لأنّ البطولة من أقوى الأنساب !

أما كيفَ عَرفَ سيف الدولة مطامع أبى فراس ؛ فمن أقوالِ أبى فراس نفسه ، لأنّ الشاعر الشاب فى مُقتبل حياته لم يكنْ ليُخْفى أمانيه وآماله ، بل كان ينقُل عن خاطره دُون اتّئادٍ ، وهو واثقٌ برجولته التى يعرفها مخالطوه، ورجولتهُ التى أثبتتْ شهادتها الصريحة فى هول المعامع .

إنّنا نكلف أبا فراس العسير الشّاق - وهو بطبيعته شاعر طروب - حين نطلُب منه أن يكون فى سِنّه الغضّة مُحنّكًا عرف الأيام ،ولاَبسَ الخطوب ، فلا تفلتُ منه عبارة ، أو تند إشارة . . . قد نطلبُ هذا من رجل ذى عقل صارم ، لا مِن شاعر تدفعه عاطفته إلى التحليق فى أجواز رحيبة يراها تتسع أمام عينيه فيطير لها بألف جناح .

أجلْ ،لقد لَـمَّحَ أبو فراس لمآربه فى أكثر ما قال ، فصرَّح فى انفعالٍ لم يملك السيطرة عليه ، فلم يَفُتْ سيف الدولة ما يَعْنيه . أمَّا صراحتُه التى لم تجلبْ عليه غير العناء فتتجلى فى قوله [1] :

يُصانُ مُـهْرِى لأمْرٍ لا أبـوحُ بـه   والدرعُ والرمح والصَّمْصَامَةُ الخَذِمُ

وقوله [2] :

---

(١) الديوان : ص٢٥٥ .

(٢) الديوان : ص ٢١٦ .

تُطالبنى بِيضُ الصوارم والقَنا   بما وَعَدَتْ جدّىَّ فِىَّ المخايلُ
ولكنَّ دهرًا دَافَعَتْنِى صُرُوفهُ   كما دَافَعَ الدَّيْنَ الْغَرِيمُ الْمُمَاطِلُ

فليتَ شعرى ما يقصدهُ بقوله « لا أبوحُ به » وهذَا الأمر لاَ يأتى إلاَّ عن طريق المُهر والرمح والدرع والسيف ؟ ولنفرضْ أنّ سيف الدولة تجاهَلَ هذا التصريح ولم يُعِرهُ اهتمامه ،أليسَ له مستشارُوه الناقمون على أبى فراس لتعاظمه عليهم ، واحتقارِه إيَّاهم، إذْ عرف عنهم ما يحيكون من الدسائس، ويعقدونَ من المكائِد . . فهل يتركُ هؤلاء ثأرهم لديه ، ولا يشنّون حَربًا عليه لدَى من يسمع الدبيب الهامس فى الصدور ، قبل أن يسمع الصّراخ الهاتف من الأفواه ؟

ثم بماذا تطالبه البيضُ الصوارمُ والرماح ؟ . . أبحَرْبِ الروم مع سيف الدولة ؟ لو كان الأمر كذلك لم يَقُلْ بعدُ هذا البيت :

ولكنّ دهرًا دافعَتْنى صُروفُه   كما دافع الدَّيْنَ الغريمُ المماطِل

حيث لا يحولُ حائل بينه وبين غزو أعداءِ سيف الدولة من روم وعرب معًا، إنما الحائل الحقيقى أمامه قيامُ سيف الدولة بسلطانه القاهر ، وتهيئته بنيه للمُلْكِ من بعده . . وقد يظن ظان أنها فلتاتٌ عابرة لا يقوم عليها حُكْم جازم ، ولكن الشأن ليس شأن هذه الفلتات العابرة ـ إنْ صحَّ أنها فلتات ـ إذ هو كذلك فى أقوالٍ كثيرة تمتلىءُ بها قصائده ، وكلها تنطقُ بمكنون الدخيل ، كما يتجلّى ذلك فى أسلوبِ مدائحه لسيف الدولة إذا قُورن بأمداح المتنبى والسرى الرفاء ، والنامى ، والخالديين ، وغيرهم من شعراء البلاط الحمدانى . . وسأوضّح هاتين الناحيتين بالتمثيل . أمّا الأقوال التى تتخلّلُ قصائدَه ولا يمكن أن تَخْفَى على سيف الدولة وحاشيته

المتزلفين فتنبىء عن شغل شاغل مَلَكَ على أبى فراس هُدوءه طيلة حياته ، لذلك كان صادقًا حين قال وهو يلفظ أنفاسه :

زَيْـنُ الشَّـبَاب أبـو فـراسٍ لـم يُـمَتَّـعْ بـالـشـبـاب[1]

إذ كيف يُمتّع بالشباب شابٌّ يعقد الآمال البعيدة ويظل يترقبُ تحقيقها، وهى تنأى وتبعد ، ولا يستطيع أن يتركَ هذه الآمال ليكون واقعِيًّا . . فالغدْرُ بوالده من أقرب أقربائه صريعًا فى ديارِ آل حمدان بالموصل، كلّ ذلك لم يبرحْ خياله ، وإخالهُ لم يبرحْ خيال والدته التى جَعَلَتْ تُذكّره بما كان، وتُخبره عن فجيعتها الحارة حين كانتْ ترتقبُ زوجها مَلكًا مُتَوَّجًا على الموصل ، فتأتيها الصواعق بنبأِ اغتياله ، وهى فاجعةٌ يتزلزل لها قلبُ أَسَد جَسُور لا قلبَ شابّة حلمت طويلا أن تكونَ السيدة الأولى فى الموصل ، فوجدتْ نفسها أَيِّمًا منعزلة مَرحومةً بعد أن كانت من سيدات القصر !

هذه الآمالُ التى تضطرم فى صدر أبى فراس لم يكن ليقوى على كتمانها فيها يُرسلهُ من شوارد القصائد . . إنّه ليفكر طويلا فى واقع حاله بيْن أقاربه الأَدْنَيْنِ ، فيجد القرابة كلما دنتْ اشتد بلاَؤها ، وهذا ما قررناهُ ومَثَّلْنا له فى باب الشكوى . ونُضيف إلى ما سبق أن نمثلنا به قصيدةً جعل جامع الديوان عنوانها (تدارينى الأنامُ ولا أدارى) ، فكان مُوفقًا فيها عَنْوَن ، لأنّ الشاعر تجنّب فيها المداراة حين تحدّث عن آماله ، وما تطالبه به نفسه من مجد منتظر! وأىّ مجد هذا إذا لم يكنْ هو الإمارة الكبرى ، بحيث يصبح رئيس الدولة ، وبحيثُ يحقّق مجدًا مَاتَ أبوه فى سبيله . . إنّه فى الواقع لا ينقصه المجد الطبيعى ، إذا اكتفيْنا بمقامه فى الدولة ، ورياسته فى الحروب ،

---

(١) الديوان : ص٥٥ .

وولايته أميرًا على منبج ، وهذا قُصارى ما يقفُ عنده أميرٌ شاب يلُوذ بجاهِ سُلطانٍ كبير، سارت الأيام بوقائعه ! ! نعم ، لا ينقصُه المجد العاقل ، ولكنّه يريد المجد الطامح الذى يُرفرف فوق كلّ علم ، والذى يعلو ولا يُعْلَى عليه ، وهذا ما عبّر عنه فى قوله (1) :

أرَى نَفْسِى تُطَالبنى بأمرٍ ... قليل دون غايته اقتِصارِى

ومـا يغنيكَ من هِمَمٍ طِوالٍ ... إذا قُرِنَتْ بأعمارٍ قِصارِ

يُقالُ لى انتظِره فرجًا ومَن لى ... بأنَّ المـوتَ ينتظرُ انتظارِى

فلا نزلَتْ بى الجيرانُ إنْ لم ... أُجاوِرْها مُجاوِرَةَ البحارِ

وتخفُق حولى الرايات حُمْرًا ... وتتبعُنِى الخَضَارمُ من نِزارِ

عزيزٌ حيثُ خَطَّ السَّيْرُ رحلى ... تُدارينى الأنامُ وَلاَ أُدارِى

وهذا قليلٌ من كثير أتْركُه للدارسين حين يقرءون ديوان الشاعر بَيْتًا بيْتًا، ليقفُوا به على ما تطويه السطور دُون أن تُبديه . . أتْركُه لأنتقل إلى مدائح الشاعِر لسيف الدولة ، وما يلحقها من الاستنجاد به ليفك أَسْره فى بلاد الروم !

لقد تَعَوَّدَ سيفُ الدولة من شعراء المديح أن يكونَ وحده البارز فى اللَّوْحَة الشعرية ، ولا يشاركه فيها مشارك ، وهذَا المنتظر فى عصر يرى فيه حاكم البلاد أنَّه كل شىء فيها ، فلا يُزاحمه بها مزاحم فى سطوته الحربية ، ونفوذه السياسى . والمتنبى حين يتحدث عن نفسه فى أماديح سيف الدولة، لا يفخر بقوته الحربية ، وكيانه السياسى ، فهذان فخرُ البطل الممدوح ، ولكنّه يفخر بشاعريته فحسب ، وتلك لا ينازعه فيها سيف الدولة ، بل

1) الديوان : ص١٦٨ .

يُعجب بها متباهيًا ، لأنها تجلُو مَنَاحِىَ عظمته ، وترسُم له أبهى صورة فى محراب التاريخ ، وقد عَرَفَ أبو الطيب ذلك معرفة شاملة . . عَرف حُدود شخصيته ، مع اتساعِ آماله وكثرةِ مطامحه ، فكانَ حَسْبُه أن يقول مفتخرًا وموجهًا الخطاب لسيف الدولة [1] :

إنَّ هـذا الشـعرَ فى الشعرِ مَلَـكْ سـارَ فـهو الشـمسُ والـدنـيا فَلَكْ

عَـــدلَ الرحمـــنُ فيـــه بيْـنـنا فَقـضَى بـاللَّفْـظِ لـى والحـمدُ لَكْ

فـإذا صـارَ بـأذْنـىْ حـاسـدٌ صـارَ ممـن كـان حـيًّا فَهَـلَـكْ

هذا المتنبى . أما أبو فراس فيقول القصيدة فى تهنئةِ سيف الدولة بأحَدِ انتصاراته فى معاركه المستمرة ، فيقرن نفسه به بطلاً محاربًا ، بل كثيرًا ما يتجاوزه إلى الحديث عن بطولته هو . وسيفُ الدولة الناقد البارع يلحظُ ذلك ولا يستطيع أن يعترض ، فمكانُه أكبر من أن يَقرن نفسه بابنِ أخيه ، ولكنّه بدون شك يحسُّ بامتعاضٍ من هذا الذى يشير ببطولته وكأنه كُفءٌ له ، لا يتخلف عنه فى شىء ، فقد أوقع سيفُ الدولة ببنى كلاب ، فصَبَّحَهُم وبُسُطُهم حرير ، ومَسَّاهم وبُسطهم تُراب ، كما قال المتنبى . وكانَ أبو فراس أحدَ جنوده فى هذه المعركة ، فأعد قصيدةَ التهنئة ، فإذا سيف الدولة يكادُ يتوارى فيها ، والحديثُ كله عن بنى حمدان على لسان شاعر بنى حمدان أبى فراس ، فقد دعاهم سيف الدولة للقتال ، فكانوا كل شىء فى الميدان [2] :

دعَانـا وَالأسِنَّةُ مشـرعــاتٌ فكنّا عـند دعـوتــه جَوابَا

وكنّا كالسّهام إذا أصــابتْ مرامِها ، فراميها أصـابَـا

(١) ديوان المتنبى : جـ٣ ، ص ١١٣ .

(٢) ديوان أبى فراس : ص ١٨ .

فما كانُوا لنا إلاَّ أسَارَى ... وما كانت لنا إلاَّ نهابَا
وسُقْناهم إلى الجيرانِ سَوْقًا ... كما نَسْتَاقُ آبالاً صعابَا
ولما اشتدَّتِ الهيجاءُ كُنَّا ... أشَدَّ مخالبًا ، وأَحَدَّ نابَا
ديارهمُ انتزعناها انتزاعًا ... وأَرْضُهمُ اغْتَصَبْنَاهَا غلابَا

ثم يقول عن نفسه (١) :

أَنا ابنُ الضَّارِبِينَ الهامَ قدمًا ... إِذَا كَرِهَ المحامون الضِّرابَا
ألم تعلمْ ومثلك قالَ حَقًّا ... بأنى كنتُ أثقبها شِهابَا

وإذا كان أبو فراس أثقب المقاتلين شهابًا . . فماذا كان سيف الدولة ؟

ولأبى فراس قصيدة طويلة حتى ليجوز أن تكون مُعَلَّقة أو ملحمة ، قالها مهنئًا سيف الدولة بإيقاعه بالقبائل العاصية له ، وقد أفرطَ الشاعر إفراطًا حادًّا فى الحديث عن مآثر أبيه وجَدِّه ، وعمّه وأخيه ، وعن نفسه ، بحيث كان سيف الدولة وَليدًا من آحادٍ كثيرة . وقد يكونُ الشاعر صادقًا فى تسجيل هذا التاريخ الحافل ، ولكن المقام مقام المدح لسيف الدولة فى انتصارٍ كَسَبه ، وسيف الدولة فى هذا المجال لا تهمه أسرته قَدْرَ ما يَهمُّه تصويرُ بطولته ! لقد اتجه الشاعر بعد أن امتدح نفسه إلى ابن عمه سيف الدولة فقال (٢) :

بِكُمْ وبِنا يا سيفَ دَوْلَةِ هاشمٍ ... يطولُ بَنُو أعمامِنا ونُفَاخِرُ
فَإنَّا وإِيَّاكم ذُرَاهَا وهامُها ... إذا النّاس أعناقٌ لها وكَراكِرُ (٣)
تَرى أَيَّنَا لاقَيْتَهُ من بَنِى أبى ... لـه حَالِبٌ لا يَسْتفيقُ وجاذرُ

(١ ، ٢) الديوان : ص١١٧ وما بعدها .

(٣)كراكر : جمع كركرة ، وهى الصَّدْر .

وكانَ أَخِى إنْ رَامَ أمرًا بـنفـسِه فلا الخوفُ موجود ولا العجزُ حاضرُ

لنا فى بنى عَمِّى وأَحْياءِ إخوتى عُــلاً حيث سَــارَ النَّـيِّرَانِ ســوائرُ

وأنّهمُ السَّاداتُ والغُــرَرُ الـتى أَطُـولُ علـى خَصْمِى بهـا وأُكـابِـرُ

هذه نفثات تتأجج فى صدر أبى فراس، عبّر عنها بما أدركه سيف الدولة من تطلّعِه المرتقب ، وفى قصائد الأسر لم يكفّ الشاعر عن فخره بمجده ، وهو مما لا يرحّب به سيفُ الدولة كما سنلم بها بعْد . فإذا سألَ سائل عن حُسْنِ العلاقات بيْن سيف الدولة وأبى فراس فى مطلع أمره ، وتَقاعُسِه عن نجدته فى الأسْر ، بل وتهكمه ببعضِ أقواله ، فقد عَرف الجواب فيما أشـرْنا إليه ببعضِ التفصيل ، وكانتْ فراسةُ سيف الدولة فى موضعها الصحيح ، حَيثُ لم يَكَدْ يَغِبْ عن الوجود بموته ، ويصبح الأمر فى يد ولده ـ وهو فى الوقت نفسه ابن عم أبى فراس ـ حتى طمح أبو فراس إلى تحقيق أَمَلِه ، فأعلنَ العصيان ، واستقلَّ بما فى يده من بلاد كان سيف الدولة قد جعله أميرًا عليها ، ولم يكنْ بُدٌّ من أن تَقُومَ الحرب بين أبى فراس وابن عمه خليفة أبيه ووارث مجده ، وأن تنتهى بمصرع أبى فراس .

أُسِرَ أبو فراس ، فوقع حبيسًا فى أيدى الروم ، وقد اخْتلَفت الرواة فى وقت أَسْرِهِ ، ومُدَّته ، وهل كان مَرة أو مرتيْن ، فروايةٌ تقول : إنَّه أُسِرَ لفترةٍ واحدة امتدت سبع سنوات ، وابتدأتْ من عام ٣٤٨ هـ . وروايةٌ ثانية تقول : إنّ الأسْر وقع سنة ٣٥١ هـ ، فتكونُ المدة التى قضاها حَبِيسًا أربع سنوات . وروايةٌ ثالثة تقول : إنَّ الأسْرَ وقع مرتَيْن ، أُولاهما : سنة ٣٤٨ هـ ، وثانيتهما سنة ٣٥١هـ ، وجميعُ الروايات تتّفق على أنه أطْلق سنة ٣٥٥هـ ، وأنا أَرى أن الرواية الأخيرة لا تَثْبتُ للنقاش ، لأنّه لو كان أُسِرَ مرتين ، فلا شك أنه بعد نجاته الأولى سيتحدث عنْ خُلوصِه ويحتفل بشجاعته التى روتها هذه الرواية ، وهى أنّه غَافَلَ الحرّاس وصعد إلى أعلى الحِصن فى مَحْبسه ثم ركبَ الفرس وغَمرهُ فهوى به إلى الأرض ، وانطلقَ من فوقه قَبل أن يتحطّم به ، وذلكَ عملٌ أسطورى لم نسمع بمثله إلاّ ما قيل عن الأمير المملوكى مراد بك حين فرَّ من أعلى القلعة بحصانه ، إذْ دَهَمَ المماليكَ رصاصُ محمد على على غِرة ، فاعتلى مسطح القلعة لينجو بهذه الحيلة ! وقد تم له ذلك ، وتحدّث به الناس . فإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ لم يُشر أبو فراس فى شعره إلى هذه البطولة الخارقة التى كَتَبتْ له النجاة ؟ إنّ الخِلافَ بعد توهن

هذه الرواية ينحصرُ فى مدة الأسْر ، فهى أربعُ سنوات وفق الرواية الأولى ، وسبع سنوات وفق الرواية الثانية ! وإنْ كنت أميل إلى أن الأسر أربع سنوات فقط ، لأنّ صاحب هذه الرواية هو ابن خالويه صديق أبى فراس ، وجامعُ ديوانه ، وشارحُ بعض أبياته ، ولَيس يغيب عنه زَمَنُ الأسْر ، وقد كان يُراسله ويتلقّى رومياته ، وهو بهذه الصلة الواشجة أَدْرَى وأَصْدَق .

وقد اعترَض قوم على تسمية قصائد الأسْر بالروميات ، وهى التسميةُ التى راجتْ بين مؤرخى الأدب ، حتى ضُرب بها المثل مع غيرها من المشتهرات ، فقالُوا : أحسن القصائد خمريّات أبى فراس ، واعتذاريّات النابغة ، وسيفيات المتنبى ، وهاشميات الكُمَيْت ، وحجازيات الشريف ، وروميّات أبى فراس . . وَوَجْهُ الاعتراض أن أبا فراس لم يتحدثْ عن بلاد الروم حتى تُوصف قصائده بالروميات ، وهو اعتراض هَشٌّ واهن ، لأنّ المراد بالروميات قصائد الأسْر التى قيلت أثناء السجن فى بلاد الروم ، وهذا يكفى .

وقد كان أبو فراس فى أوائل أيامه مُتفائلاً ، يعتقد أنَّ أَسْرَه لن يطول ، وأن سيفَ الدولة سيتداركه بالعَوْن ، فلم يفزعْ هذا الفزع الذى ظَهر بعد ذلك فى كثير من قصائده . وإذَا أردنا أن نقف عند بعض المعانى التى جاشتْ بخاطره فيها نَظَمَه الشاعر الأسير ؛ فإننا نرى هذه المعانى تدورُ حول ثلاثة أهداف ، أولها : الفخرُ ببسالته وشجاعته ، وذكريات أمجاده السالفة. وثانيها : ما يعانيه فى الأسْر من ألم نفسى وألم جسمى . وثالثها: مشاعره الحارّة المتأججة نحو أُمِّه التى لم تنقطع دموعها حُزْنًا على فراقه . وقد كان الفخر عاملَ صُدودٍ عَنْه فى نفس سيف الدولة . وقد عَرفنا فى الفصل الماضى ضيقه النّفسى بما يُبدى من طموح ، ولو أدركَ ذلك أبو

فراس تمامَ الإدراك لأغفل هذه الناحية استجلابًا لما يرجوه من الفداء ، وكأنى به يحاول أن يُسقط الزيتَ على النار لتزدادَ التهابًا دون أن يفطِن إلى العقبى ، ويتجلَّى ذلك فى مثل قوله (١) :

إذا لـمْ أَجِـدْ مـن خُلَّةٍ ما أُريـدُه ... فعِندى لأخرَى عَـزْمَـةٌ وَرِكَابُ

صَبُـورٌ ولـو تَبْـقَ مِـنِّى بقيَّـةٌ ... قَـئُولٌ ولـو أَنَّ السيوفَ جَـوابُ

وَقُـورٌ وأَحْداثُ الزمـانِ تَـنُوشُنِى ... وللمـوت حـولى جَيْئَةٌ وذهـابُ

تَغَابَيْتُ عنْ قَوْمِى فظنّوا غباوتى ... بمفـرقِ أغبـانـا حَصًى وتُـرابُ

تَمُرُّ الليالـى ليس للنفعِ مَوْضِعٌ ... لَـدَىَّ ولا لـلمُعْتَـفِـينَ جَـنَابُ

ولا بَرَقَتْ لـى فى اللقـاءِ قواطِـعٌ ... ولا لَمَعَتْ لى فى الحـروبِ حِرابُ

بنـى عمّنـا لا تُنكِرُوا الحـق إننـا ... شِدادٌ على غـير الهَوانِ صِـلابُ

فـإنْ لـم يكـنْ ودٌّ قديـمٌ نَعُـدُّهُ ... وَلاَ نَسَـبٌ بَـيْنَ الرجـالِ قُـرَابُ

فَأَحْـوَطَ للإِسْـلاَمِ أَلاَّ يُضيـعَنِى ... ولـى عنـكَ فيـه حَوْطَـةٌ ومَنَـابُ

ويقول فى قصيدة أُخرى مخاطبًا سيف الدولة (٢) :

مَتَى تُخْلِفُ الأيـامُ مِثْلِى لـكمْ فتـًى ... شديـدًا على البـأْسَاءِ غير مُلَهَّدِ (٣)

فَإِنْ تَفْتَدُونى تفتـدُوا شَرفَ العُـلا ... وأَسْـرَعَ عَـوَّادٍ إليـهـا مـعـوَّدِ

يُدافِعُ عـن أعـراضـكـم بلسـانهِ ... ويضـربُ عـنكـم بـالحُسَامِ المهنَّدِ

فـما كُلُّ مَـنْ شَادَ المعـالى يَنَـالُهـا ... ولا كُـلُّ تيـَّارٍ إلـى المجـد يهتـدِى

(١) الديوان : ص٢٤ .

(٢) الديوان : ص٨٤ .

(٣) الملهَّد : الذليل .

تَشَبَّثْ بها أُكْرُومَةً قبلَ فَوْتِها وَقُمْ فى خَلاَصِى صادِقَ العَزْمِ واقْعُدِ

ومما آلم أبا فراس ، ما جاءَه من انتقاص سيف الدولة إيَّاه ، وقوله : مَن يعرفُه فى خراسان حتى يفتديه ؟ وقد أشرتُ إلى مثل ذلك ، وكان على أبى فراس حين تبلغه هذه المزعجات أن يعرف أن سيف الدولة ليس سَهْلَ القياد ، وأن له فيه رأيًا خاصًا لا يُعالن الناسَ به ، وأن يتركَ جانب الفخر بالبطولة جانبًا ، لأنّ تلك البطولة هى التى أخافت سيف الدولة حين صمَّم على أن يرث الإمارة ولدُه دُون أن يُعارضه مُعارِض . وقد أدركَ أبو فراس تنكّر عمّه ، ولكنه لم يدرِك السبب الحقيقى ، أو لعله أدركه ورأى من الحزم أن يتجاهله ، مكتفيًا بإعلان التبرُّم فى مثل قوله [1] :

زَمانى كُلُّه غضبٌ وعُتْبٌ وأَنْتَ عَلَىَّ والأيامُ إِلْبُ [2]
وأنتَ (وأَنْتَ دافع كل خَطْبٍ مع الخطب المُلِمِّ) عَلَىَّ خَطْبُ
إلى كَمْ ذَا العِقَابُ وليس جرْمٌ وكَمْ ذَا الاعتذارُ وليس ذنبُ
جَنَانِى ما عَلِمْتَ ، ولى لسان يَقُدُّ الدِّرْعَ والإنسانَ عَضبُ [3]
وزَنْدى وهو زندُك ليس يَكْبُو ونارى وهى نارُكَ ليس تخبو
وفَرْعِى فَرْعُكَ السَّامى المُعَلَّى وأَصْلى أصلُك الزاكى وحسْبُ
فلما حَالَتِ الأعداءُ دونى وأصبح بَيْننا بَحْرٌ ودَرْبُ
ظَلِلْتَ تُبدِّلُ الأقوالَ بَعْدِى ويبلغنى اغتيابُك ما يغبُّ

فهذا أشبهُ بالتقريع ، وفيه عزةٌ يعرفها سيف الدولة ، ويعمل حسابها . ولو فَطن الشاعر لأثرها المؤلم فى نفس سيف الدولة لجاوزها إلى عتاب رقيق .

---

(١) الديوان : ص٣١ .

(٢) إلْبُ : من التأليب والتحريض .

(٣) جناني : عقلي وإدراكي . والعضب : السيف القاطع .

أمَّا شدةُ معاناة الأمير ، فهى معاناةٌ نفسية أكثر منها جسمية ، لأن الروم قد عَرفوا مكانته ، فلم يجعلوهُ كالعَامَّة من الأسَراء ، وأباحُوا له أن ينطلق دُون قيد ، فقد رَوَى أبو فراس عن نفسه (١) :

« لما حصلتُ بالقسطنطينية أكْرمنى ملك الروم إكرامًا لم يكرمه أسيرًا قبلى ، وذلكَ أن من رُسومهم ألاّ يركب أسيرٌ فى مدينة ملكهم دابة قبل لقاء الملك ، وأن يمشى فى ملعبٍ لهم مكشوف الرأس ، ويسجدَ ثلاث سجدات ، ويدوسَ الملك رقبتَه فى مجمع لهم ، فأعفانى الملك من ذلك » .

فإذا كان الأمر كذلك ، فأبو فراس يتعذب نفسيًّا لا جسديًّا ! أما الجراحُ التى أثقلت جسمه فلم تكنْ من تعذيب الأسر ، ولكنّها سهام أصابتْه فى المعركة قبل الأسْر ، وبقى أثرها فى بدنه ، بل بقى سهم لم يخرجْ إلا بعد أَمَد طويل ، وعَليه أن يتحملها صابرًا ، وقد فعل ، وقد استطاع أن يعبِّر عن أحاسيسه دُون افتعال ، فجاءت أبياته هنا عذبةً مؤثرة ، كما ينطق بذلك قوله (٢) :

أُسِرتُ وما صحبى بعُزْلٍ لَدَى الوغَى ... ولا فَرَسى مهرٌ ولا ربُّه غَمْرُ

ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرئٍ ... فليس له بَرٌّ يقيه ولا بَحْرُ

وقال أُصَيْحابى الفرارُ أو الردى ... فقلتُ هما أمرانِ أحلاهُما مُرُّ

ولكننى أمْضى لِمَا لا يَعيبُنى ... وحَسْبُك من أَمْرَيْن خَيْرُهُمَا الأسْرُ

هو الموتُ فاخْتَرْ ما عَلاَ لكَ ذِكْرُه ... فلم يَمُتِ الإنسانُ ما حَيِىَ الذكرُ

(١) شاعر بنى حمدان للدكتور بدوى : ص ٧٤ .

(٢) الديوان : ص ١٦٠ .

سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهُم وفى الليلة الظلماءِ يُفْتَقَدُ البدرُ

ومما زاد بَلاَءَهُ أنه كان يعتقد أن حُسَّادَه من أهله لم يكفُّوا شرهم عنه وهو أسير ، وقد كان فى محنته ما يجعل البعيد قريبًا ، فكيف يُصرُّ القريب على إيذائه والإرجاف به ؟ . . شعور ملأ صدر أبى فراس بالغيظ ، فقال مستنكرًا[1]:

ولم أَرَ مثلَ اليوم أكثر حاسدًا كأَنَّ قُلوبَ الناسِ لى قَلْبُ وَاجِدِ

وهل غضّ منى الأسْر إذْ قَلَّ ناصرى وقلَّ على تلك الأمور مُساعِدِى ؟

أَلاَ لا يُسَرُّ الشَّامِتُونَ فإنها مَواردُ آبائى الأولى ومَوارِدِى

وما كُلّ أنصارى من الناس ناصرِى ولا كُلُّ أعْضَادِى من الناسِ عاضِدِى

وهَلْ أَنَا مسرورٌ بقربِ أقارِبِى إذا كان لى منهم قلوبُ الأباعِدِ ؟

إذا كان غيرُ الله للمرءِ عُدَّةً أَتَتْهُ الرَّزَايَا من وجُوهِ الفَوائِدِ

ومن أشهر قصائد الشعر العربى بعامة قصيدة « الحمامة النائحة » التى سَجَّلَتْ أرقَّ المشاعرَ المتجاوبة بين شاعر أسير وطيرٍ ينوح ، فقد أحدثت المشاركة الوجدانية بينهما صِلَةً فوق صلات القرابة والنسب ، حين عرض الشاعر على جارته الحزينة أنْ يُقاسمها الهموم ، وأن يفصح عنها تمام الإفصاح إذا تحدث عن شجونه ، وقد أحسَّ إحساسًا رهيفًا أنَّ رُوحَها الضعيفة تُماثل روحه ، وأنّ جسمه هَشٌّ كجسمها ، كما استطاع أن يكتم

(١) الديوان : ص٨٧ .

دَمْعَهُ لأنه غالٍ نفيس ، وأى دَمْعٍ كَتَم أبو فراس ! . . وقصائدهُ كلها دموعٌ مُحرقة ، وإنْ لم تَسِلْ على خَدِّهِ الشاحب الحزين . يقول أبو فراس [1] :

أقـولُ وقـد نـاحتْ بقربـى حمامـةٌ ... أَيـا جارَتـا هل تشْعـرين بحـالى ؟

مَعاذَ الهوى، ما ذُقْتِ طارقةَ النّوَى ... ولا خَطَـرَتْ مـنكِ الهُـمومُ ببـالِ

أيحمـلُ محـزونَ الـفُـؤَادِ قـوادمٌ ... على غُصُنٍ نائِى المسافـةِ عـالِ ؟

أيا جارتا ما أنْصفَ الدهـرُ بيننـا ... تَعَالَىْ أُقاسِمْك الهـمومَ تعـالِ !

تعـالَى نَرَى رُوحـًا لَـدَىَّ ضعيفـةً ... تَـرَدَّدُ فى جِسْـمٍ يُعَـذَّبُ بـالِ !

أَيَضْحَكُ مَأْسُـورٌ وتـبكى طـليقـةٌ ... ويسكتُ محزونٌ ، ويندبُ سـالِ ؟

لقد كـنتُ أَوْلَى مِنْكِ بـالدَّمْعِ مُقـلةً ... ولـكنَّ دَمْعِى فى الحـوادثِ غـالِ !

ولو أنّ الشاعر كتب مائة بيتٍ تقريرىّ يتحدّث عن مأساته ، ما بلغَ من التأثير مبلغ هذه الأبيات السّبعة؛ لأنّه أجاد الاختيار حين طَارَحَ الحمامة شجوها الأليم ، وإن زعَم أنها سالية ! ولكن ما أدْراهُ أَنّها لم تَذُق طارقة النَّوَى ؟ وأنّ الهموم لم تخطر لها على بالٍ ؟ وحَديثُ الشعراء من قبله ومن بعده عن نَوْح الحمائم يؤكّد ما يحترق فى أحشائها من لهيب ، وإلا ففيمَ النواح والترديد ؟ أَنَسِىَ حديث الهديل « الابن » الذى فَقَدتْه حمامةٌ عريقة القدم ، فظلت تنوح عليه ليصبح النواح سُنَّةً فى عالم الحمام ؟ لقد كان الإلهام عند الشاعر أصدق من المنطق الجاف ، ولو سَارَ معه إلى آخر الشوط لأتى بما يهز الوجدان .

---

(١) الديوان : ص٢٣٨ .

ونأتى إلى حديث الأم ، ومن عجبٍ أن حديثَ الأم بدأ فى تاريخ الشاعر فى نشأته الأولى ، ثم سكت أمدًا طويلا ، فلم يرجع إلى صفحاتِ حياته إلاّ حين أُسِرَ وفارقَ الشام إلى بلاد الروم . وقارىء قصائد الأسير يحسُّ أن أُمّه كانت فى خياله لا تفارقه ، وإنْ لمْ يُشر إليها فى كثيرٍ مما قال إذ ذاك . لقد سيطرت على شعورهِ سيطرةً تامة أَنْسَتْهُ حديث أُسرته الخاصة ـ زوجةً وأولادًا ـ لأن الشاعر قد تأَهّل وأنجبَ ، ولم تُسمع له غير أبيات قيل إن المَعْنِيَّ بها زوجته ، وأهزوجةٌ لطيفة تحدث عن بنيه ، يقول فيها[1] :

وَأَصْبيةٌ كالفراخ أكبرهُم أصغرُ
وقومٌ ألفْنَاهُمُ وغُصْن الصِّبا أخضرُ
يُخَيَّلُ لى أمرهُم كأنهمُ خُضَّرُ

أمَّا الأم فقد أرِق لها كما أرِقتْ له . أَرِقَ لها حين جاءتْه الأنباء بحسرَتِها الشديدة على أَسْره ، وحُقَّ لها ، فهو وحيدها الذى وَضَعَتْ آمالَ الحياة فى شخصه ، ثم هو ليسَ ابنًا كسائر الأبناء ، بل هو أميرٌ فارسٌ ، شاعرٌ جَوَادٌ، وذو تطلُّع للقيادة العالية . . فإذَا ذهَبَ فجاءةً عن مجتمعه إلى حيث لا يعلم أحد عنه شيئًا ، فقدْ نزلت الداهية الدهياء بها قبلَ أن تنزل به ، ولعل ممّا برَّح بأبى فراس فى أَسْره أنَّهُ كان يحمل هَمَّها ، ويعلم مشاعرها المتوهجة حولَه . . فهو يُديم مراسلتها راجيًا أن تَتَصَبَّر ، وأن تعرف أن للزعامة ثمنَها الغالى من الكفاح والنضال ، وما قد يعقُب ذلك من الهزائم والانتصارات . ثم يذكّرها بأسماء بنت أبى بكر وموقفها مِن ولدها عبد الله

---

(١) الديوان : ص ١٥٣ .

ابن الزبير ، فهى أمٌّ مُثْلَى ، ووالدةُ ابنٍ تولى الخلافة أمدًا غير قصير ، ثم جاءت الأمور بغير ما يبتغيه ، فما جَزِعَتْ والدته ، ولكنها استسلمت للصبر الجميل .

لقد عَبَّر أبو فراس عن ذلك فى قصيدة باكِية تتحدث عن غَدْر الدنيا ، وعقوقِ الأخِلاَّء ، واحتياجه إلى صديق يُفصح له عن ذات صدره ، فإذا فَرغَ من الحديث عن لواعج نفسه اتَّجَه إلى والدته فقال[1] :

وإنّ وراءَ الستر أُمًّا بكاؤها ... عَلَىَّ وإنْ طالَ المدَى لطويلُ

فَيا أُمَّتَا تعْدمِى الصبرَ إنه ... إلى الخير والنُّجْحِ القريبِ رسولُ

ويَا أُمَّتا لا تُخطِئِى الأجْرَ إنَّهُ ... على قَدرِ الصبر الجميلِ جزيلُ

أَمَالَكِ فى ذاتِ النطاقَيْن أُسْوَةٌ ... بمكّة والحربُ العَوانُ تجولُ

أرَادَ ابنُها أَخْذَ الأمانِ فلم تُجِبْ ... وتعلمُ علمًا أنه لَقتيلُ

وَكُونِى كما كانَتْ بأُحْدٍ صَفِيَّةٌ ... ولم يُشفَ منها بالبكاءِ غليلُ

ولو رَدَّ يومًا حمْزةُ الخير حزنها ... إذن ما عَلَتْهَا رنَّةٌ وعويلُ

فهو كما استشهد بأسماء واستشهد بصفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ ، وشقيقةُ حمزة رضى الله عنه ، إذْ رأت جسده قد تُقُطِّعَ إرْبًا حين مَثَّلَتْ قريشٌ بجثته ، فجزعتْ ثم تصبّرت ! وهذا يدل على أن الفتاة الرومية التى اختطفها والد أبى فراس أسيرةً ثم اصْطفاها زوجةً قد ثقفتْ ثقافةً إسلامية ، فعرفت مَنْ هى أسماءُ ، ومَنْ هى صفية ، وعرف ولدها عنها ذلك ، فأخذَ يُذكّرها بنساء الصدر الأول فى الإسلام .

---

(١) الديوان : ص ٢٣٢ .

وقد تكرّر حديث الشاعر عن أمّه ، فى قصائد نوَّاحَة ضَارِعة ، ولعل أبلغها ما كتب به إليها حين عَلم أنها تركتْ « منبج » إلى « حلب » لتستعطف قلب سيف الدولة على ولدها ، فما رجعت بطائلٍ ، بل ما سمعتْ كلمة واحدة تُحْيِى مَواتَ الأمَل فى صدرها اليائس الحزين ، وهو موقفٌ غريب عَنْ سِمَات سيف الدولة ، إذ كانَ عليه ـ على الأقل ـ أن يُطفِىء لهيبها ببعض عبارات الأمل ، وأن يحترم دُموعًا تقاطرت أمامه من عَيْنَىْ زَوْجَةِ أخيه المُرفرف بروحه على مجلسه وهو يرى ضراعة الأم إشفاقًا على النَّجْل ! لم يفْعَلْ سيف الدولة ذلك ، وهو لا يُكلّفه شيئًا ، ممّا يدل على أنه كان مَسرورًا بنفى أبى فراس لِـمَـا أسلفنا قَبلُ من أسباب . يقول أبو فراس [1] :

يا حَسْرَةً ما أكادُ أحملها ... آخرُها مُزعِجٌ وأوَّلُها
عَليلةٌ بالشَّامِ مُفردة ... باتَ بأيْدِى العِدَا مُعَلِّلُهَا
تمسكُ أحشاءَها على حُرَقٍ ... تُطفئها ، والهمومُ تشعلُها
إذا اطمأنت وأين ؟ أَوْ هدَأَتْ ... عَنَّتْ لها ذُكْرَةٌ تُقَلْقِلُهَا
يا أُمَّتَا هذِهِ منازلُنا ... نَتركُها تارَةً وننزلُهَا
أسْلَمنا قَومُنَا إلى نُوَبٍ ... أَيْسَرُهَا فى القلوبِ أقتلُهَا
يا سيدًا ما تعُدُّ مكرمةً ... إلا وفى رَاحَتَيْهِ أكملُهَا
ليستْ تَنالُ القيودُ من قَومى ... وفى اتِّباعى رضَاكَ أحملُهَا

(1) الديوان : ص٢٤١ .

بــأىِّ عُـــذْرٍ رَدَدْتَ وَالِـهَــةً عليـكَ دُونَ الوَرى مُعَوَّلُــها [1]

جــاءتْـكَ تَمْتَــاحُ ردّ واحــدهــا وينظـر النـاسُ كيف تُقْفِلُها [2]

سَمَحْـتَ منّــى بمهجةٍ كَرُمَــتَ أنــتَ علـى يـأسِهـا مُـؤمّـلُها

تلـكَ المـودَّاتُ كيـف تُهمـلُهــا ؟ تلـكَ المـواعيدُ كيـف تُغفلُها ؟

وطالَ الوقت ، حتى كان شوال سنة ٣٥٥ هـ ، فتم الفداء بين سيف الدولة والروم ، وعادَ الأسير إلى موطنه ، ولكنْ لدينا ملاحظة مهمة : لقد كان من المتوقع أن ينظم أبو فراس قصيدةً شاكرة يُشيدُ فيه بفضل سيف الدولة فى إطلاق سراحه ، ولكنْ لم يفعل ! وتعليلُ ذلك أنه استبطأَ كثيرًا ما قام به عَمُّه نحوه ، ورأى أنَّ مَلامَةَ الناس كانتْ دافِعةُ أخيرًا إلى إطلاق سراحه ، وقد قالَ قصيدة بمناسبة رَدِّ حريته إليه يشكر فيها ربه ، ولم يطل النَّفَسَ فى القول ، بل اقتصر على ستة أبيات بُدئت بقوله [3] :

وللهِ عنـدى فى الإسـار وغيـره مَواهِبُ لم يُخْصَصْ بها أحـدٌ قَبْلى

حَلَلْتُ عقودًا أعْجَزَ النَّاسَ حلُّها ومَازِلْتُ لا عِقْـدِى يُرامُ ولا حِلّى

(١) والهة : حزينة . ومعوَّلها : الذى تعتمد عليه .

(٢) تمتاح : تسأل . وتقفلها : تُرجعها .

(٣) الديوان : ص٢٣٧ .

رجع أبو فراس إلى « منبج » ، وكانتْ تحتَ يده من قبل ، فرأى سيف الدولة أن تكونَ له بعد فكاكِ أَسْرِهِ ، ولكنّه رجعَ إليها بنفسٍ تحمل الجراحَ ، وتمتلئُ بالخواطر الحزينة ، وزاد فى بَلْوَاه أنّ والدته قد لَقِيَتْ وجهَ ربها قبل أن تَراه ، وأنّها كانت تردد اسمه فى لحظات احتضارها ، وقد علم برحيلها قبل أن يُفَكَّ قيده بأيام ، فقالَ قصيدة لم يتعمد أن يَصوغها بفكرِهِ الواعى ، ولكنه تركَ أبياتها تَنْهلُّ كما تنهلُّ دموعه اضطرارًا دُون اختيار ، وفى ذلك موضعُ تأملٍ للشعراء ، إذْ أَوْلى بهم أن يُسجّلوا خواطرهم كما تنساب فى صدورهم دون تَرَصُّدٍ لتَوْشِيَةِ البيان وإبداع النَّظْم ، فإنّهم بذلك يبلغون بصدق القول ما لا يبلغونه بتنميق البيان . . فالمرثاة الحارّة تُقدم نفسها للقارىء دموعًا تتساقط لا أبياتًا تقيّدها الأوزان ، إذْ يقول الأمير الجزوع[1] :

أيا أُمَّ الأسير سقاكِ غَيْثٌ بِكُرهٍ مِنْكِ ما لقى الأسيرُ
إذا ابنُكِ سار فى بَرٍّ وبحرٍ فمنْ يدعو لهُ أو يستجيرُ ؟
حرامٌ أن يبيتَ قريرَ عيْنٍ ولومٌ أن يُلَمَّ به السُّرورُ
وقد ذُقْتِ الرزايا والمنايا ولا ولدٌ لديكِ ولا عَشيرُ
وغابَ حبيبُ قلبِكِ عن مكانٍ مَلائكةُ السماءِ به حُضورُ

(١) الديوان : ص١٦٣ .

ليبكِكِ كلَّ يومٍ صُمْتِ فيه مُصابرَةً ، وقد حَمِىَ الهجيرُ
ليبكِكِ كُلَّ يومٍ قُمْتِ فيهِ إلى أَنْ يبتدِى الفجرُ المنيرُ
أَيا أُمَّاه كم هَمٍّ طويلٍ مضى بِكِ لم يكن منه نصيرُ
أيا أُمَّاه كم سرٍّ مَصُونٍ بقلبكِ ماتَ ليس له ظهورُ
أيا أماه كم بُشرى بِقُربى أَتَتْكِ ، ودُونها الأجلُ القصيرُ
إلى من أشتكى ولمنْ أُناجى إذَا ضَاقتْ بما فيها الصدورُ ؟
نُسَلَّى عنكِ أَنَّا عن قليلٍ إلى ما صِرْتِ فى الأخْرَى نصيرُ

والبيت الأخير كان نذيرًا بقرب أَجَلِ أبى فراس ، فكأنه حين قال : « إنَّا عن قليلٍ سنصيرُ إلى ما صِرْتِ إليه » أحسّ أن الأجل قريب ، وهذا ما حَدَثَ فِعْلاً ؛ لأن سيف الدولة قد ماتَ بعد فداء أبى فراس بعام واحد ، وانتقل المُلْكُ إلى ابنه سعد الدولة ـ وهو فى الوقت نفسه ابن عَمٍّ أبى فراس ـ فتحَركتْ مطامح أبى فراس التى جاشت فى صدره من قبل ، وتحدّثَ عنها بها فهمه سيف الدولة ، فَجَافاهُ ، ولو كان لأبى فراس صديق مخلص لأشَارَ عليه بالتَّرَيُّث ، ولكنه استعظم أن يرثَ سعد الدولة مُلْكَ أبيه، وأن يكون القائم على أمره « قرعويْه » فيكون كل شىء بيدِ هذا الأجنبى المتغطرس ، وكان بينَه وبينَ أبى فراس من العداء ما عرفه الناس. والرواة يختلفون فى تحديد مكان أبى فراس بعد إطلاقه ، فقائل إنه رجع إلى حكم «منبج » تحتَ قياده عمّه ، وقائلٌ إنه حكم مدينة حمصَ لا « منْبج » . ويرجّح الرأى الثانى أنّه حين أعلن عصيانه لابن عمه كان واليًا على « حمص » وقد استمر بها عامًا كاملا يرقب الأحداث ، ويَرى ابن عمه عديم الحول أمام سلطان قرعويه الذى أصبح كل شىء فى الدولة . ومَن يعرف شمم أبى فراس ،

ونخوته المتأبِّية على ما لا يروقه ؛ يتوقع منه أن يشق عصا الطاعة على ابن عمه ، وأن يستقل بحمص وما جَاوَرَها ، ويدعو لنفسه ، وهذا ما كان فعلاً ، وكان الأمير حذرًا ، فلم يَسُقْ جيشًا لمحاربة قرعويه فى « حلب » ، ولكنّه أعلن استقلاله فحسب ، وكان لابدّ من الصدام ، حيث تهيأ قرعويْه لمنازلة أبى فراس بجيشٍ سيف الدولة وَعُدَّته ، وقد جمع من الأعراب حولَه ما جعلهم يؤازرونه ليُرهب بأس أبى فراس ، ودارت معاركُ اختلف المؤرخون فى تفصيلها ، ولكنّ إجمالها ينتهى إلى أمرٍ لا شك فيه ، وهو مصرعُ أبى فراس متأثرًا بجراحه بعد أن فَرَّ من المعركة ، لا فى معمعان المعركة ذاتها ، لأنّ له أبياتًا قالها فى خطاب ابنته تدل على أنّه كان جريحًا يُعانى آلام الحراب فى مكانٍ هادىء هَيَّأَ له أن يقول الأبيات ، وإلاّ فكيف يُصرع فى أتون المعركة ، ويُوصى ابنَته وهو بين السيوف والرماح ؟

لقد كانت ابنته جواره باكية ملتاعة ، فخاطبها بقوله [1] :

أَبُنَيَّتِي لا تَجْزَعِي ... كُلُّ الأنامِ إلى ذَهابْ
نُوحِي عَلَيَّ بِحَسْرَةٍ ... من خَلْفِ سترِكِ والحجابْ
قُولِي إذَا نادَيْتِنِي ... وَعُيِيتُ عن رَدِّ الجوابْ
زَيْنُ الشَّبَابِ أَبُو فرا ... سٍ لم يُمَتَّعْ بِالشَّبابْ !

وكانت وفاته فى ربيع الآخر سنة ٣٥٧ هـ عن سَبعة وثلاثين عامًا ، كما يقول الأثْباتُ من المؤرخين ، فإذا اختلف مختلفٌ حول هذه السّن ، فهى العادةُ دائمًا مع من يتّبعون الروايات الضعيفة ليقفوا بها أمام الروايات الصحيحة . والأميرُ قد مات ، فلِمَ الارتياب فيما تداوله المحققون الأثبات؟!

(١) الديوان : ص٥٥ .

صفات كريمة

غَيْرى يُغَيِّرُهُ الفِعــــــالُ الجافى ويحولُ عـن شِيَمِ الكـريـمِ الـوافِى
لا أرتَضـى وُدًّا إذا هـــو لم يَــدُمْ عنـد الجفـاءِ وقِلّـةِ الإنْصـافِ
تَعِس الحريـصُ وقلَّ مــا يأتـى بـه عِـوَضًـا مـن الإلحاحِ والإرْجـافِ
إنَّ الغَنِـىَّ هـــو الغَنِـىُّ بنفْسِـــه ولـو انَّـه عَـارِى المنـاكبِ حَـافِ
مـا كلّ مـا فـوقَ البَسيطـة كـافيًا فـإذا قنعـتَ فكـلُّ شـىءٍ كـافِ
وتَعـافُ لى طمـعَ الحريصِ أبُـوَّتِى ومُـروءتـى وقَنـاعتِـى وَعَفـافِى
مـا كَثـرةُ الْـخَيلِ الجيـادِ بـزائِدى شرَفًـا ولا عَـددُ السَّـوامِ الضـافِى
خَيْلى و إنْ قلّـتْ كثيرٌ نفعهــا بين الصـوارمِ والقَنَـا الـرِّعَّـافِ
ومَكـارِمـى عـددُ النُّجـومِ ومَنْـزلى مـأوَى الكـرامِ ومنـزلُ الأضْيـافِ
لا أَقْتنـى لصُروف دَهـرىَ عُـدَّةً حتـى كـأَنَّ صُروفَـهُ أَحْـلاَفِى
شِيمٌ عُـرِفْـتُ بِهِنَّ إذْ أَنـا يـافعٌ ولقـد عَـرفْـتُ بمثلهـا أَسْـلاَفى

رِثـــاء

أَيُّ اصْطبـــارٍ ليسَ بـــالـــزَّائِل ؟ وأَيُّ دَمْـعٍ ليـسَ بـــالهامــلِ ؟
مَـــاذَا أَرادتْ سَطَـــوَاتُ الـــرَّدَى بـــالأسَـــد بنِ الأسـدِ الْبَـاسِـلِ
مَـــا أَنـــا أبكيــــهِ ، ولكنّما تبْكيــهِ أَطْـرافُ القنــا الــذّابـلِ
أَرَى المعـــالى إذ قَضَـى نَحْبَـــهُ تَبكـى بكـاءَ الـــوَالِـــهِ الثَّـاكِـلِ
فكـم حَشــــا قبْرَكَ مـن راغــبٍ وكـم حَشَـا تُـــربكَ مِـنْ آمِـلِ !
لا دَرَّ دَرُّ الـــدَّهْــر مَـــا بَـالُـــهُ حَمَّلَنِـى مـــا لَسْـــتُ بـــالحامِـلِ
مَـن كـــان أَمْسَـى قَلْبــهُ خـــالِيًـا فـــإننـى فى شُغُـــلٍ شـــاغــلِ
مـــا كـــان إلاَّ حَـــدَثًـــا نـــازلاً مُــــوَكَّـــلاً بِـــالحدَثِ النَّـــازلِ

العفو عن أميرة

وما أَنْسَ لم أنْسَ يَومَ المَغار مُحَجَّبَةً لَفَظَتْهَا الْحُجُبْ
فَوَافَتْكَ تَعثُرُ فى ذَيْلها وقد رَأتِ الْمَوْتَ مِنْ عَنْ كَثَبْ
وقد خَلَطَ الخوفُ لمّا طَلَعت دلَّ الجمالِ بِذُلّ الرعُبْ
تُسارِعُ فى الخَطْوِ لاَ خِفَّةً وتهتزُّ فى المَشْى لاَ مِنْ طربْ
فَلَمَّا بَدَتْ لَكَ دُون البيُوتِ بَدا لكَ مِنهنّ جَيْشٌ لَجِبْ
فكنتَ أخاهُنَّ إذْ لا أَخٌ وكُنتَ أباهُنَّ إذْ لَيسَ أبْ
وما زِلْتَ مُذْ كُنتَ تَأْتِى الجميلَ وتَحْمى الحرِيمَ وَتَرْعَى النّسَبْ
وَتغْضَبُ حتى إذَا ما مَلكْتَ أطَعْتَ الرِّضَا وعَصَيْتَ الغضَبْ
فَوَلَّيْنَ عنكَ يُفَدِّينَهَا وَيَرْفَعْنَ مِنْ ذيْلها ما انْسَحَبْ
يُنادِينَ بين حِلالِ البُيُوت لا يَقْطَعُ اللهُ نَسْلَ العَرَبْ
وَقَدْ رُحْنَ مِن مُهجاتِ القلوب بأوْفرِ غُنْمٍ وأَغْلَى نشبْ (1)

(1) النشب : ما يملكه المرء من مال وإبل ونحوه .

الشعرُ ديوان العرب

الشعـــرُ ديـــوانُ العَـــربْ　　أبـــــدًا وعنــــــوانُ الأدبْ

لم أَعْـــدُ فيـــه مفـــاخِـــرِى　　ومَـــديـــحَ آبـــائى النُّجُـــبْ [1]

ومُقطَّعـــــــــــاتٍ ربَّما　　حَلَّيْـــتُ مِنهـــنَّ الكُتُـــبْ

لاَ فى المديــح ولاَ الهجـــاءِ　　وَلا المجـــــونِ ولا اللَّعِـــبْ

(١) النجب : الكرام .

ليل حبيب

لَبِسْنـا رداءَ اللَّيـلِ ، والليلُ وَاضِحٌ   إلى أن تَـــردَّى رأســه بِمَشِيـبِ

وَبِتْنَـا كغُصْنَـىْ بـانــةٍ عــابثَتْهُما   إلى الصُّبْـحِ رِيحَا شَمالٍ وجَنـــوبِ

مجالٍ تَـــردّ الحاســدين بِغيظِهـم   وتَطْـــرُف مِــــنَّا عَيْنُ كُـلِّ رقيـبِ

إلى أنْ بَــدَا ضَـوْءُ الصبــاح كأنَّــه   مَبـادِى نُصـولٍ فى عِـذارِ خَضِيـبِ

فيـا ليـلُ قَـد فَــارَقْتَ غيرَ مُــذَمَّمٍ   ويــا صُبحُ قــد أَقْبَلْتَ غيرَ حَبِيـبِ



7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

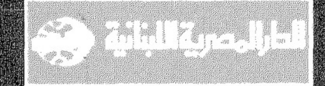
تليفون : 3256098 - 3251043

مشاهير الشعراء العرب

للناشئين والشباب

يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدم للشباب والناشئين هذه المجموعة من أعلام الشعر العربي ، الذين عاشوا فى عصور وبيئات مختلفة ، وتركوا لنا بصمات واضحة فى مسيرة الشعر العربى . يقدم كل كتاب من هذه السلسلة ترجمة موجزة ووافية للشاعر وعصره ، والتيارات الأدبية التى أثرت فى شعره ، كما يلقى الضوء على جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية ، مع الإلمام بسمات كل شاعر والتعريف بالبيئة التى نشأ فيها ، والمدرسة الشعرية التى يمثلها أو الاتجاه الشعرى الذى ينسج على منواله ، مع وضع نماذج ومختارات من شعره .

لقد تم اختيار هذه المجموعة من الشعراء المطبوعين المبدعين على أيدى مجموعة من الكُتّاب المتخصصين فى هذا المجال ـ وجدير بكل شاب أن يلم بحياتهم ، وشعرهم الجيد الراقى الرفيع الذى يتغلغل فى النفوس ويهز الوجدان .




Bibliotheca Alexandrina
0261230

تصميم ورسوم

محمد حجى